أحمد القرملاوي

# قميص لتغليف الهدايا

قصص

الدار المصرية اللبنانية

# صلاة ق 4

الآن اطمأنّ قلبه، نسبيًا على الأقل، ليس فقط لثقته في عودة دولاب العمل للدوران بدءًا من اليوم، وحتى يمرّ المأزق على خير، ولكن أيضًا لإعادة تفعيل مهاراته القيادية، تلك التي أهملها لسنوات طوال، واحتاجت لأزمة معقّدة كهذه لتشحذ شفراتها من جديد. وكقائد سابق، اعتبر الأزمة الحالية معركته التي لا بد أن يخوضها بما لديه من سلاح، واضعًا في الحسبان طبيعة أرض المعركة الجغرافية، والإمكانات اللوجستية والمعلوماتية المتاحة، وهذا ما فعله بدقّة حين جلس إلى طاولة السفرة على مدار يومين، مُنفردًا بذاته وبأزمته، وقد شغّل مروحة السقف لتدفع الهواء الراكد، وفرّد لوحات المشروع أمامه مُستخدِمًا منفضة السجائر كثقلٍ يمنعها من أن تطير، وأخذ يتأمل لوحة الأساسات بتمعّن شديد، ثم لوحتي الأعمدة والموقع العام، قبل أن يعود للوحة الأساسات ثانيةً ويتتبّع السُبلات التي تربط بين القواعد الخرسانية، راسمًا أبعاد الأزمة بمقياس رسم دقيق.. حتى هبط الإلهام عليه، كما وحيٍ يجيء في موعده

اليوم يُعيد فَرد اللوحات ثانيةً، هذه المرة على طاولة المكتب في كرفانه الضيق عند مدخل موقع الإنشاء، فقد حضر للموقع المحدوف بعيدًا في عمق الصحراء، مبكّرًا جدًا، حتى إن الخفراء والعمال المقيمين فيه لم يكونوا قد خرجوا بعد من غرفهم المبنية بالطوب الأحمر، ولا كان أيٌ من المهندسين والمشرفين والعمال الآخرين قد توافد على الموقع في هذه الساعة المبكرة، فتحقّق له ما أراد من أن يسبق الجميع، حتى يُفاجئهم حين يصلون بما أعدّه لحلّ أزمتهم جميعًا.

أشعل مكيف الغرفة، وجلس خلف طاولة المكتب المغطّاة باللوحات، وشرع يتّصل بالجميع تباعًا ويطالبهم بالحضور في مكتبه، بادئًا بعامل البوفيه، ثم بدأ يُشعل السجائر واحدةً في عقب الأخرى. وخلال نصف ساعة، كان الجميع قد توافدوا على الكرفان، جلس مَن سبق منهم على الكراسي القليلة المتاحة في غرفة المكتب، بينما انحشر أكثرهم وقوفًا في الفرجات والممرات وأمام باب الكرفان، حتى إن البعض وقف بالخارج ومدّ رأسه عبر فتحة الشباك التي يخرج منها دخان السجائر. أمهل الجمع بعض الوقت حتى ارتفع اللغط، وتأكّد من ترقّبهم جميعًا لسماع ما لديه.

بدأ بأن شكرهم جميعًا على سرعة تلبية الدعوة لهذا الاجتماع الطارئ، ثم أخذ يستعرض الموقف كاملًا، بكلمات واضحة ومُحدّدة.. كلهم يعلمون بخلفيّته القيادية، قبل أن يُنشئ شركة المقاولات التي يعملون فيها، ولذلك يفهم جيدًا طريقة الجهاز صاحب المشروع في التفكير، وكيف يُدير المواقع التي تُعدّ أرض المشروع إحداها.

لو فاحت رائحة الحادث ووصلت هناك، سينسحب المشروع بجرة قلم، لن تحمينا شروط التعاقد ولن يتدخل اتحاد المقاولين، طالما تعلق الأمر بالجهاز ومشروعاته.

النتيجة أن الجميع سيتم تشريده، ببساطة فزم الورق الذشت، ولن تشمّ شركتنا رائحة مشروع كبير من جديد، لو ضمها الجهاز للائحة السوداء. هذه ضريبة يمكننا تحمّلها، فقد ربحنا الكثير في السنوات السابقة ولسنا في حاجة إلى المزيد، أما ما لن نتحمّله أبدًا فهي المحاكمات، وهي النتيجة الطبيعية التي تنتهي إليها تحقيقات النيابة في مثل هذه الحوادث؛ سيتم اعتبار أي إهمال أو غفلة أو حتى سوء حظ - وهي أمور تحدث في مواقع الإنشاء كل يوم - جريمة ضد الدولة، تمس مباشرة مصلحة الوطن، وتحول دون تقدّمه.

«من منا مستعد لتحمّل هذه البهدلة؟!»

بهذا السؤال اختتم مقدمته، وبهذه المقدمة أفحمهم جميعًا في أزمته، فصارت دائرة الرؤوس المتحلّقة حوله مهبطًا لكارثة وشيكة، بل يمكن جمعها في باقة واحدة والزجّ بها أسفل مقصلة هائلة الحجم. الآن تأهّبت الآذان لاستقبال المخرج السماويّ، الذي خطّط له على مدار اليومين الماضيين كي يُنقذ الجميع.

أعاد فزد لوحة الموقع العام، والتقط أقلام التحديد الملونة من درج المكتب، ووقف يرسم التخطيط العام للمشروع على اللوحة البيضاء المعلّقة وراء طاولة المكتب؛ رقعة الأرض باللون الأسود، البوابات، الشوارع الداخلية، مبنى المول التجاري بالأزرق، الكرفان الذي يجتمعون فيه الآن، ثم رسم باللون الأحمر بعض الأسهم وعلامات التوضيح، وأكمل يقول: «أمامنا حلّ وحيدٌ لا ثاني له. أن نقوم بصبّ قاعدة خرسانية جديدة فوق ق4، هنا.. في هذا المكان على وجه التحديد، فالقاعدة الحالية صارت بعد الحادث غير صالحة من الناحية الإنشائية. سنواجهنا بطبيعة الحال مشكلةٌ لا بد أن أغلبكم قد انتبه إليها، وهي ارتفاع منسوب القاعدة الجديدة عن باقي القواعد الخرسانية.. محلولة بإذن الله، فسنقوم بعد الصبّ بزدم متر إضافي فوق باقي الأساسات، لتعويض فارق المنسوب، ثم نُسارع بصبّ أرضية البدروم وإخفاء الأساسات تمامًا، وربما أسعفنا الوقت، واستطعنا عزلها من الخارج قبل أن نُفاجأ بزيارة من إحدى القيادات».

جال بعينيه بين الوجوه الصماء، أدرك انهماكهم في محاولة الطفو فوق التفاصيل والخطوات اللازمة، فقرر إغراقهم شبرًا إضافيًا. أمسك بالقلم الأخضر قائلًا: «طبعًا تتساءلون عن أرضية البدروم التي سترتفع، وهو الأمر الذي سيلاحظه اللجنة لا

محالة وقت المعاينة، لدينا الحل بإذن الله». أخذ يرسم ببطء خطًا متقطعًا باللون الأخضر، يصل بوابة الموقع بمدخل المول، وأكمل يقول: «سنقوم برفع منسوب الشارع تدريجيًا، بدءًا من بوابة الموقع ووصولًا إلى حدود المبنى، بفارق نصف متر على الأقل، فتندثر المشكلة كأن لم تكن».

تابع عيونهم فيما تجوس في متاهة المشاكل والحلول، وتفشي سرّ أذهانهم المشوّشة. أدرك كم تمهدت أرض المعركة لحسم الموقف وجني الغنائم. أردف قائلًا: «أنتم قوام هذه الشركة، بدونكم لن تقوم لها قائمة، لذلك سنقوم بسداد أجوركم كاملةً عن فترة امتناعكم السابقة عن العمل. لكننا صرنا في أمسّ الحاجة للحاق بجدول التنفيذ الزمني، لذلك سنحتسب اليوم بيومين لكل من يعمل أربع ساعات إضافية في الوردية التالية، حتى نستدرك الخطة. كما سنقوم بصرف مكافآت لائقة لو استطعنا تحقيق ذلك في غضون أسبوعين».

افترّت بعض الوجوه عن بسمات متردّدة، فاطمأن لاجتيازه حقل الألغام بأمان، وشرع يستكمل الشير بسرعة أكبر.. قال لهم: «ليفصح الآن من لديه أي تعليق». أطبق الصمت أكثر كثافة من ذي قبل. وجد الفرصة سانحة لإنهاء الكلام: «إذًا لنُصلِّ صلاة الغائب على المرحوم خالد».

نهض بدون تردّد، لم ينظر لأي منهم في عينيه، لم يتوقّف لمصافحة أحد، ولا حتى للتحقق من لحاقهم به، بل إنه هبط درجات الكرفان قفزًا، وخبّ بسرعة وعزم صوب رقعة الأرض المحفورة، وبرشاقة حاول اصطناعها هبط السلم الخشبي الموصل إلى باطن الأرض، وعبر محاذرًا أسفل السقالة المعدنية، مارقًا بنعومة جهة القاعدة الخرسانية ق4 التي تتوسط الرقعة المحفورة، والتي حفظ مكانها عن ظهر قلب من طول ما تأمّل لوحة القواعد. شقّ طريقه إليها كأنها ملاذه اليومي المعتاد، كأنه يستريح عليها كل يوم ليشرب الشاي خلال راحة الغداء، كأنه يرسم عليها بقطعة الطباشير قلبًا وحرفين، أو يكتب اسمه بجوار لقبه الأثير.

وضع فوق حافّة القاعدة سلسلة مفاتيحه، وبجوارها خوذته البيضاء الناصعة، وشرع يراجع اتجاه القِبلة في تطبيق الصلاة على الهاتف المحمول.

وفيما يدور حول جسم القاعدة، لمح طرفَ حذاءٍ مطاطيٍ يبرز من أعلاها؛ تذكّر أن بوز الحذاء هو ما أخبر بمكان خالد - عامل الصبّة المتوفّى - حين افتقده العمّال والمشرفون بعد صبّة القواعد. ارتسمت في مخيلته صورةُ خالد، بينما يمسك وحده بخرطوم مضخّة الخرسانة العملاقة، يوجّهه بعزم قوته، ليقذف الخرسانة الجاهزة

maktabah.blogspot.com

بداخل ق4، في هذه البقعة انزلقت قدمه على الأرض الزلقة، وعلى هذا النحو سقط بداخل القاعدة الهائلة حين ابتلعته، رأسه لأسفل كما زرع البصل، ولا دليل على وجوده غير بوز الحذاء.. لا بد أن تكون صرخته الأولى قد تلاشت في ضوضاء المضخة العملاقة، أما الثانية فقد انكتمت تحت الخرسانة المنهمرة من أعلاه.
مسكين خالد. لم ينتبه زملاؤه لاختفائه حتى انتهت الصبة، فيما يزعمون اليوم محاولتهم إنقاذه، ويتخلصون من ذنبه باتهامهم الإدارة بالتقصير في توزيع أحزمة الأمان.

لم يعمل حسابًا لهذا الحذاء البارز كما شاهد قبرٍ أعلى القاعدة.. لن يستطيعوا الصلاة على خالد في وجود الحذاء، ولن يتمكنوا من إعادة الصب طالما استمرّ يذكّرهم بالحادث. لا بد من بتره.

نظر إلى الخلف، فلم يجد أحدًا يقف وراءه، لم يتبعه أيٌ منهم لداخل الحفرة. تسلّق بعينيه جدار رقعة الأرض المحفورة، فوجدهم مُصطفّين أعلاها قبالة السلم الخشبي، يتابعون شروعه وحيدًا في صلاة الغائب. أدرك أن الخطة لن يُكتب لها النجاح طالما بقيت هذه الوجوه الواجمة، لا بد من تغييرها.. فكّر أن يمنحهم إجازة مدفوعة الأجر، ويجلب طاقمًا آخر يجزّ الحذاء أولًا من فوق القاعدة، ثم يستكمل باقي الخطوات كما شرحها قبل قليل، وسيرى فيما بعد إن كان هؤلاء المصطفون أعلى الجدار يستحقون فرصةً جديدة، فكل ما تفصح به نظراتهم الميتة هذه لا يُبشّر بخير. هكذا استقرّ لديه الرأي، قبل أن يستدير مُكبّرًا لصلاة الغائب بمفرده.

*****

## بيت من جير

كانت أول شيء أشتريه لنفسي منذ خلا لي البيت. كانت أمنيتي التي لم تبرح يومًا خيالي، فيما كانت أمي - رحمها الله - تقف أمام تحقيقها بالمرصاد.. «أبدًا لن تعيش في بيتي سلحفاة!»، كانت تقول بإصرار، وكنتُ أستميت في الدفاع عن سلحفاتي غير الموجودة بعد، فأقول إنها أرقّ مخلوق على وجه الأرض، تلك التي دائمًا ما تقصر الشر مع الجميع، فتؤثر التراجع أمام التهديدات على إلحاق الأذى بأي مخلوق. ثم يأتي بعد ذلك مَن يصفها بأنها قدم شر.. إنه لظُلم بيّن لهذه المسكينة، المسالمة.

وعلى الرغم من استماتتي في الدفاع عن سلحفاتي المتخيّلة، لم أنجح في إقناع أمي وتحقيق حلمي باقتنائها، وحتى حين كبرتُ قليلًا وصرتُ قادرًا ببعض العناد

على إنفاذ رغباتي، وجدتني راغبًا عن إغضاب أمي، فقد كانت مريضة سكر وضغط، ولو حدث وأصيبت أمي بأي مكروه، فلن يجد أصحاب الأنوف الطويلة أسهل من لوم سلحفاتي المسكينة المسالمة. لذلك ارتضيت أن أنحي جانبًا فكرة اقتناء السلحفاة، لردح طويل من الزمن. لكن حين ماتت أمي وأمسى البيت فارغًا عليّ، شعرتُ بحاجتي لوجود روح أخرى تشاركني هواء البيت، وعادت فكرة اقتناء السلحفاة تُلِح عليّ أكثر من أي وقت مضى.

انتظرتُ حتى مرّ الأربعين، ووضّلتُ بنفسي آخر المعزّين والمواسين حتى باب البيت، وبدأتُ التفكير بجدية في أمر شراء السلحفاة. صرتُ أتمشى كل مساء في شارع جسر السويس الصاخب بالحياة، المليء بمحلات بيع العصافير والحيوانات الأليفة، أتوقّف أمام الأقفاص المتراصة، أتحسّسها، أستشعر ذبذبات الخوف التي تصدر عن الحيوانات الحبيسة؛ جميعها ينزعج إذ يقترب الزبائن من الأقفاص، بعضها يختبئ بداخل الجحور، والبعض ينتابه الرعب الجنوني، فيما عدا السلاحف؛ وحدها تبقى ساكنةً لا تتحرّك، أقصى ما قد ينِدُّ عنها أن تتراجع برأسها لداخل دزقتها، كما لو أنها جَدّةٌ أذتها ضوضاء الأحفاد، فانسحبت لغرفتها تنشد الهدوء.

أطلقتُ على إحدى السلاحف المعروضة اسم: نونة، اسم جدّتي لأمي، وطلبتُ شراءها من البائع المشغول باستمرار. حملتُها لبيتي مع طعام أسبوع من الخيار والخس. غسلتُ الخيار جيدًا بالماء والخل، وقطّعتُه شرائح رفيعة تُناسب فمها الصغير، لكنها رفضت يدي الممتدّة نحوها بشرائح الخيار، تمنّعت ليوم، ليومين، لثلاثة أيام مرّت عليّ كأنها أسابيع، ووجدتُ قلقي يزداد رسوخًا مع كل محاولة.. الموت يُنذر بزيارة جديدة للبيت، بعدما استدعى أبي، وجدّتي، ثم اختطف أمي، والآن يريد نونة، لن تحميها الدرقة الصلبة من قبضته اللعينة.

عدتُ لصاحب المحل؛ قال إن الأمر طبيعي جدًا ومعتاد، فالسلحفاة تحزن لفراق بيتها حتى تعتاد المكان الجديد، وقد تمتنع عن الأكل والشرب عدّة أيام، دون أن يكون لذلك أثر يُذكَر على صحّتها، ثم سألني إن كان في بيتي بلكونة مُشمسة، وحين أومأتُ بالإيجاب نصحني بأن أضع نونة فيها كي تتحمّم بأشعة الشمس، فيهنأ لها العيش في بيتها الجديد.

سارعتُ بنقلها لبلكونتنا المُطلّة على الشارع الصاخب بالحركة والنداءات، فكأنما انتقلَت إليها حيوية الشارع سريعًا؛ صارت تُطلّ برأسها لترشُف أشعة الشمس، تتحرّك بخرية في أرجاء البلكونة، تقضم نتوءات الجير المغلّف للجدران، تأكل شرائح الخيار وأوراق الخس، بشهيةِ امرأةٍ حبلى.. «حمد الله على السلامة»، قلتُ

على إنفاذ رغباتي، وجدتني راغبًا عن إغضاب أمي، فقد كانت مريضة سكر وضغط، ولو حدث وأصيبت أمي بأي مكروه، فلن يجد أصحاب الأنوف الطويلة أسهل من لوم سلحفاتي المسكينة المسالمة. لذلك ارتضيت أن أنحي جانبًا فكرة اقتناء السلحفاة، لردح طويل من الزمن. لكن حين ماتت أمي وأمسى البيت فارغًا عليّ، شعرتُ بحاجتي لوجود روح أخرى تشاركني هواء البيت، وعادت فكرة اقتناء السلحفاة تُلِح عليّ أكثر من أي وقت مضى.

انتظرتُ حتى مرّ الأربعين، ووضّلتُ بنفسي آخر المعزّين والمواسين حتى باب البيت، وبدأتُ التفكير بجدية في أمر شراء السلحفاة. صرتُ أتمشى كل مساء في شارع جسر السويس الصاخب بالحياة، المليء بمحلات بيع العصافير والحيوانات الأليفة، أتوقّف أمام الأقفاص المتراصة، أتحسّسها، أستشعر ذبذبات الخوف التي تصدر عن الحيوانات الحبيسة؛ جميعها ينزعج إذ يقترب الزبائن من الأقفاص، بعضها يختبئ بداخل الجحور، والبعض ينتابه الرعب الجنوني، فيما عدا السلاحف؛ وحدها تبقى ساكنةً لا تتحرّك، أقصى ما قد ينِدُّ عنها أن تتراجع برأسها لداخل دزقتها، كما لو أنها جَدّةٌ أذتها ضوضاء الأحفاد، فانسحبت لغرفتها تنشد الهدوء.

أطلقتُ على إحدى السلاحف المعروضة اسم: نونة، اسم جدّتي لأمي، وطلبتُ شراءها من البائع المشغول باستمرار. حملتُها لبيتي مع طعام أسبوع من الخيار والخس. غسلتُ الخيار جيدًا بالماء والخل، وقطّعتُه شرائح رفيعة تُناسب فمها الصغير، لكنها رفضت يدي الممتدّة نحوها بشرائح الخيار، تمنّعت ليوم، ليومين، لثلاثة أيام مرّت عليّ كأنها أسابيع، ووجدتُ قلقي يزداد رسوخًا مع كل محاولة.. الموت يُنذر بزيارة جديدة للبيت، بعدما استدعى أبي، وجدّتي، ثم اختطف أمي، والآن يريد نونة، لن تحميها الدرقة الصلبة من قبضته اللعينة.

عدتُ لصاحب المحل؛ قال إن الأمر طبيعي جدًا ومعتاد، فالسلحفاة تحزن لفراق بيتها حتى تعتاد المكان الجديد، وقد تمتنع عن الأكل والشرب عدّة أيام، دون أن يكون لذلك أثر يُذكَر على صحّتها، ثم سألني إن كان في بيتي بلكونة مُشمسة، وحين أومأتُ بالإيجاب نصحني بأن أضع نونة فيها كي تتحمّم بأشعة الشمس، فيهنأ لها العيش في بيتها الجديد.

سارعتُ بنقلها لبلكونتنا المُطلّة على الشارع الصاخب بالحركة والنداءات، فكأنما انتقلَت إليها حيوية الشارع سريعًا؛ صارت تُطلّ برأسها لترشُف أشعة الشمس، تتحرّك بخرية في أرجاء البلكونة، تقضم نتوءات الجير المغلّف للجدران، تأكل شرائح الخيار وأوراق الخس، بشهيةِ امرأةٍ حبلى.. «حمد الله على السلامة»، قلتُ

لنونة بعد أيام، بينما أراقبها من جلستي على كرسي البلكونة المصنوع من الخيزران، وأسند ظهري بارتياح تام على الشلتة الرفيعة الملونة، وأظل أتابعها بغبطةٍ كأنها عروستي الحرون التي بدأت تلين، وشرعت تخلع فستان الزفاف دون خجل.

فرّغتُ من أجلها ساعات طويلة على امتداد اليوم؛ أجمع برازها المتناثر، أبدّل طعامها الذابل، أمسح التراب عن شغل الجدار حيث تنهش الجير بشراهة زائدة، أحتسي قهوة الصباح بضجيتها، وأدندن لحنًا كنتُ أنام عليه قديمًا في حضن جدتي، نافخًا دخان السجائر بعيدًا عنها خشية إزعاجها. ثم صرتُ أجالسها حين أتناول الغداء، الذي نقلتُ مكانه لطاولة البلكونة؛ أجلس على الكرسي الخيزران القديم وأضع أمامي صينية الطعام، كما كان أبي يفعل دائمًا ويثير إحراجي أمام الجيران، حتى إن جارًا همسَ لنا لاحظني ذات يوم، فقال حين رفعتُ بصري إليه: «اللي خلّف ما مات»، ما جعلني أنتبه لكوني أطيل البقاء في البلكونة أكثر مما ينبغي، جالسًا بالفانلة الداخلية ذات الحمالات، التي تُبرز حجم كرشي وتجعل مني صورةً لأبي. انتبهتُ أيضًا لكون درقة السلحفاة صارت صورةً مطابقة لسيراميك البلكونة، حتى إنني كدتُ لا أميزها من صفحة الأرضية السيراميك، حين تسحب نونة رأسها لداخل الدرقة. ساءلتُ نفسي: كيف لم أنتبه لهذا التطابق يوم وضعتُها في البلكونة؟ أم أنها أخذت تتماهى ببطء مع محيطها الجديد!

شغلني لغز تلوّنها لعدة أيام تالية، خاصة وقد أخذت نونة تنمو بسرعة عجيبة، ما دفعني لأن أمرّ على صاحب المحل وأستفسر منه عما يشغلني، لكن الرجل أهملني لبعض الوقت، حين فطن لكوني جئتُ فقط كي أطرح الأسئلة، وأني لا أعتزم شراء المزيد من الحيوانات أو الإكسسوارات، ثم استمع إليّ بنصف انتباه، وقال إن سلحفاتي من نوع السولكاتا سريع النمو، ولا داعي لأن أشغل بالي بمتابعة السلحفاة لهذه الدرجة، فالأمور عادية، عادية جدًا. لكنني حين صنعتُ بيدي قُبّةً في الهواء، محاولًا وصف الحجم الذي وصلت إليه نونة، حدجني بنظرة ارتياب شديد، وقال: «مستحيل».

مضيتُ موقنًا بغرابة الأمر، وبأن سلحفاتي ليست ذلك الكائن الأليف المسالم، الذي يُساير الحياة بنظرةٍ بلهاء متسامحة، ولا يُناصب مخلوقًا العداء كما كنتُ أحسبها قبل اكتشاف اليوم، بل إنها كائن متوحش لا يُمكن توقّعه، يقضم جير الجدران ليمتصّ الكالسيوم ويغذّي درقته العجيبة.. كائن يُقوّض بيتي، حتى ينمو بيئه نموًا غرائبيًا لا يُصدّقه الرجل!

maktabah.blogspot.com

خطوث بقلق لداخل البلكونة، وقفث بجانب الباب أرنو نحو نونة. سألتها: ماذا دهاكِ يا جدّتي الطيبة؟ هالني الحجم الذي وصلت إليه، وأفزعني منظر بلاطات السيراميك التي صارت تُغلّف درقتها. خلال أسبوع سيمكنني استبدال البلاط المكسور بقالبين أو ثلاثة من هذه الدرقة سريعة النمو!

حبستها بداخل البلكونة. صرتُ لا أطأ أرضها إلا لتزويدها بالماء والخس، بحساب الآن، لا بإفراط حنون كما كنتُ أفعل في السابق، حتى البراز لم أقو على إزاحته، أخطف النظرة السريعة لجير الجدران الآخذ في التآكل، وأعود لمحبسي بداخل الشقة. صرتُ أنا المحبوس بالداخل، لا هي، شبه معزولٍ عن ضوضاء الشارع الموحية بالحياة.. إنه القبر في صورةٍ مُخفّفة.

حتى عذاب القبر لم أرحم منه، فقد صارت نونة تقتحم أحلامي في هيئتها الضخمة القادمة لا محالة، تخطو ببطء لداخل الغرفة، وتشبّ واقفةً على قائمتيها الخلفيّتين، وتتلمّس طريقها لسطح السرير، تُحرّك بوزها حركةً مضطربة، تتشمّم قدمي، تُمسك بطرف منامتي، تقضم أظافري وأطراف أصابعي، فأقوم مفزوعًا في وسط الليل.. كل ليلة تنهش المزيد مني، حتى بلغت بعد أيام عظمة ساقي، وراحت تلعق وتنهش فيها كما كانت تفعل في جير الجدران. لم يَجدِ النور الذي صرتُ أتركه مضاءً أثناء النوم في طرد الكوابيس، بل استمرّت تلِحّ عليّ كأنها صراصير الليل. لكنني انتفضتُ ذات ليلة لأجد ظفرًا شبه مبتور فعلًا! صرختُ دون صوت، وقمتُ أتخبّط حتى باب البلكونة؛ وجدته مغلقًا كما تركته قبل ساعات. كدتُ أجنّ.. تساءلتُ بفزعٍ لا يُمكن حياله ضبط النفس: كيف حدث ذلك؟! وحدّثتُ نفسي بأن السكوت ما عاد ممكنًا الآن، إن لم أقم بالتصرّف حالًا ودون إبطاء، ستأكلني السلحفاة!

ظللتُ مستيقظًا طوال ساعات. حتى شقّت صيحةُ الفجر سكونَ الليل، أرهفتُ السمع لعدد لا نهائي من الميكروفونات، تصدح بأصوات معدنية من كل اتجاه. صرتُ أستسيغ تداخل النداءات لأول مرة، وقمتُ أتوضأ وأستعد للصلاة، راجيًا العون ممن لا تُدركه الحواس.. وأثناء تلاوتي التحيات، دبّت قدما زبّال الحي فوق سلم البناية، فسارعتُ بإنهاء الصلاة وفتحتُ باب الشقة منتظرًا صعود الزبّال.

«ثمة شيءٌ في البلكونة لا يُمكنني حمله، استدعِ زميلك كي تحملاه سويًا».

ربما استثقل كلامي فقال لي: «دعني أحمله وحدي».

قلتُ: «لا.. إنه ثقيل».

maktabbah.blogspot.com

نزل لكي يستدعي زميله سائق الكارو، وسرعان ما صعدا معًا ودلفا لداخل الشقة، قدتهما صوب البلكونة المغلقة، وبوجودهما خلفي عاودتني الجرأة المفتقدة، ففتحتُ باب البلكونة على مصراعيه، وأشرتُ نحو نونة.

«هذه»، قلت، فسأل الزبال: «هذه؟!»، فأومأتُ بالإيجاب، فما كان من سائق الكارو إلا أن انسحب بهدوء حتى باب الشقة، قائلًا لصاحبه: «سأنتظرك تحت»، وقبل أن يسحب الباب وراءه حدجني بنظرة مُستريبة، ثم مضى ذاهبًا.. أما الزبال، فقد حمل نونة وخطا بها بخفة نحو الباب، ولم يكد يُصدِّق حين استوقفته ونقدته مائة جنيه، فيما أتحاشى رؤية نونة **المطوية تحت إبطه**.

*****

## الموت على صدر السندريلا

كان في أمسّ الحاجة للهدوء التام، لتصفية الذهن، والابتعاد عن أي تشتيت، لشحذ شفرات الحواس الخمس، الست لو استطاع، والتركيز فقط على متابعة رقصة الموت خطوة بخطوة، نغمةً فنغمة، حتى لا يُطوِّح به المركب المقلوب في إحدى هزّاته العنيفة الغادرة، كما فعل بكثيرين قبل هذه اللحظة. سرحانه ولو لطرفة عين، لن يعني إلا الموت المحقَّق، ليس ثمة خيار آخر غير التشبث بحافة المركب، بانتباه شديد، كما يفعل الآخرون ممّن لا يعرفون سباحة البحار. هو أحذ هؤلاء، فلم يغم قبل هذا اليوم إلا عاريًا في المصرف الواقع على حدود بلدته، أو في بحيرة البرلّس ذات المياه الكسولة الراكدة، فبقيًا شاطئ بلطيم على مسافة ضربتين فقط من ذراعيه القويّتين. أما الغوم بملابسه الشتوية الثقيلة هذه، وفي بحرٍ مفتوح بلا غور هكذا، فسيسقط به نحو القاع بسهولة سحب ثقل السنّارة.

رغم ذلك، ومهما كانت درجة حرصه واستنفاره لجميع حواسه، فلا مفرّ من أن تخور قُواه في النهاية، بنفس البساطة التي تداعى بها محرّك المركب قبل قليل، فقد انهدّ حيله من قلة النوم والطعام، وخلال ثلاثة أيام مرّت عليه في عرض البحر، لم ينم لساعتين متّصلتين، ولم يتناول ما يصنع وجبةً مُشبعةً لطفلٍ حديث الفطام. لذلك أهّب نفسه لاحتمالية الغرق شبه المحتومة، وقرّر حين يقابل الغرقَ وجهًا لوجه، أن يلطِم الماء، بأقصى ما تستطيعه رجلاه وذراعاه، حتى يُفرغ غضبه المكتوم مع ما تبقّى من عزيمته، فلا بد أن يسجّل مُحاولته الأخيرة، العاجزة على نحو ما، لتَرك نُدبةٍ على جبين البحر، قاتله الذي لا غور له ولا قلب، قبل أن يُسلم بدنه لظلمة مائه وخُدرها الأبدي.

maktabah.blogspot.com

كل ما عليه حتى تحين لحظة المواجهة، أن يظل منتبهًا ومتحفزًا لأطول وقت ممكن، ناشبًا أظافره في جسم المركب المقلوب، متابعًا حركاته الفجائية، الغادرة، عازمًا على البقاء ملاصقًا لهذه الجزيرة الخشبية طالما أمكنه ذلك.

وفي هذه اللحظة غير المواتية على الإطلاق؛ حيث آخر ما كان يريده أن يحدث ما يُشوش ذهنه، أحس بزفرتها الملساء كبتلات الزهور، تداعب شحمة أذنه من الخلف، ثلامس رقبته.. توترت أعصابه أكثر مما كانت عليه، تسارعت أنفاسه وضرباتُ قلبه، استكنّت في أذنيه ضوضاء الغرق، وحلّ السلام بغتةً في محيطه الجنوني.. التفت لكي يتأكد من وجودها، فإذا بها تحبو نحوه فوق بطن المركب المقلوب، وتدفع بيديها الأجساد المتشبثة به حتى تصل إليه، وتنفخ في وجهه نكهتها الشهية.

لم يكن مؤهلًا لحضورها الآن، ولا حتى راغبًا فيه، لا يريحه وجودها وسط هذه الأجساد الهزيلة، التي تُكابد الجوع والموت المحتّم؛ ليس هذا أنسب مكان للقائهما الرومانسي، كما أن رائحته نتنةٌ لا تُطاق، لا تليق بحضورها الفردوسي. تمنى لو أنه استطاع صرفها ولو بشكل مؤقت، حتى يفرد ذراعيه قليلًا ويغفر جسمه في ماء البحر، ثم يعود للتعلّق بحافة المركب من جديد، إذ ربما تخفّت رائحة العرق والنتن ولو قليلًا، لكنها حضرت على حين غفلةٍ منه، كما كانت تفعل طوال سنوات، بنفس دلالها المفتعَل ببراءةٍ طفولية، بشقاوة لاذعة تُثير جنونه

بيأس همس إليها: «الظرف غير مواتٍ على الإطلاق!»

تبسّمت، وقالت بمرح: «صدقًا تظن ذلك؟ هل تريد أن تموت دون أن أودّعك؟!»

فقال: «هل تعتقدين أنني سأموت؟»

نظرت من حولها في الأربع جهات، ثم قالت: «يبدو ذلك.. هل ترى احتمالًا آخر؟»

فكّر في ارتقاء حافّة المركب بصدره وذراعيه، يريد أن يقترب منها بعض الشيء، أن يُلامِس جلدها البض، أن يشتمّ عبير شعرها، لكنه لم يجد الجرأة الكافية ليشرع في المحاولة، فقد كان يخشى فقدان توازنه، والسقوط نحو القاع المظلم. عوضًا عن ذلك فكّر في دفع الجسدين الملاصقين له، حتى يُفسح لها مكانًا إلى جواره، لكن محاولته باءت بالفشل، إذ يبدو أن الأجساد تزداد وزنًا تحت وطأة الهلع، أو أن الصراخ يشدّ العضلات أكثر فأكثر.

قال بنبرة محبطة: «أريد أن أجلس جوارك، لكني لا أستطيع الحركة».

استدارت، داعبت طرف أنفه بإبهامي قدميها الصغيرتين، ثم شرعت تحبو بمحاذاة

maktabah.blogspot.com

الأجساد المتعلّقة بالمركب، تتوقّف عند أحدها، تُزيحه بقدمها نحو الماء، وتهز قبّعتها البيضاء فيتراقص شعرها العابث القصير.

تُغني: «كي كي يا كي كي كو.. يا كي كي كي كو..»

بشروعها في الغناء، انكتفت كل الأصوات، حلّ السكون التام، ما عاد للصراخ صدى يتردّد، ولا للدعاء المحموم والمفجوع أثر باقٍ، ولم يعُد مرأى التساقُط والتدحرُج والتمخُّض مخيفًا؛ جميعها مشاهد هزلية صامتة، تواكِب غناءها الفَنِج، كأنها رقصةُ سمير غانم المصاحبة لغنائها، حين مثّلا معًا «أميرة حبي أنا»، كي كي يا كي كي كو.. يا كي كي كي كو.. صار يضحك بصخبٍ كلما رأى شخصًا ينبطح في جدار المركب، أو يركل زميله ليرقى نحو قمة الجزيرة العائمة، أو يفلِت الحافة أخيرًا وقد تداعت مقاومته.

اهتزّ المركب بشدة، كاد ينقلب إلى الجهة المقابلة، وبدا من منظر المتعلّقين به أن خفّة الدعاء والبكاء قد بلغت ذروتها. أما هو، فقد استمر غير قادر على الحركة، كأنما تخشّب جسده في وضع التشبّث، فيما قامت هي واقفةً فوق بطن المركب المتأرجح، وأخذت تُوازن نفسها بذراعيها النحيلتين، وتخلع ملابسها قطعةً وراء قطعة.

بدَت بلباس البحر مثيرةً فوق الاحتمال؛ لباس أسود يلاصق جسدها المنحوت كأبدع ما تكون أجساد النساء، مُفرّغٌ من الجانبين، يكشف خصرها الرهيف كرقبة زجاجة. شرعت تخطر بمياسة أمامه، تقفز فوق السطح الزلق الأشبه بقبّة، وتميل بجذعها فوق الحافة هنا وهناك، تُلامس رؤوس الهالكين، تغرف من ماء البحر وترشرش الرذاذ فوق جثثهم المتعلّقة، بينما تقول: «خمسة في عين الحسود.. حصوة في عين اللي ما يصلّي على النبي..»، ثم إذا بها تقفز قفزةً مباغتة لجوف الماء، كأنها سمكة دولفين تلتمع تحت أشعة الشمس، وتعوم دورةً كاملةً حول المركب المقلوب، تنتهي عند الموضع الذي ظل يتشبّث به في حافة المركب. تعلّقت فوق كتفه بإحدى ذراعيها، وبالأخرى راحت تعتصر خصلات شعرها المغمور بالماء، فيما صدرها البديع يعلو ويهبط بنهج طفولي.

«مياه البحر حلوة،» قالت بدلالها الآسر.

فقال بوهن: «سنعوم معًا حتى نصل لشاطئ إيطاليا.. يمكنني هناك أن أرسم الناس في الميادين، وأكسب الكثير من المال».

maktabah.blogspot.com

أغمض عينيه بشدّة، محاولًا التخلّص من لهيب الماء المالح، ثم أردف يقول: «سأبدأ برسمك أنت بالطبع، ستكون صورتك سببًا في تهافت الناس على لوحاتي».

أومأت بتأشف، وقالت: «كُفّ عن خيالك الواسع يا كي كي كو.. لست إلا نقّاش، والأغلب أنك ستفشل في الرسم كما فشلت في النقاشة، لكنك قطعًا ستفلح في الحب، وفي الموت.. ستموت بسلام بين ذراعي، ثم تلحق بي هناك على الناحية الأخرى، في الفردوس، حيث النعيم الدائم».

«نفسي أن أعيش معك..»

«سنعيش معًا بالطبع، كما فعلنا دومًا، لكن ليس هنا، هناك.. في الجهة المقابلة من العالم».

«ألا ترغبين أن أرسمك؟»

«وما الحاجة لذلك؟ لقد رُسمتُ مرارًا من قبل حتى مللتُ الأعين المتعلّقة بي، ومن أناس يفوقونك كثيرًا.. ألا تذكر؟ رسمني يحيى شاهين في «شيء من العذاب»، وعزت العلايلي في «الاختيار».. حتى المجنون محيي إسماعيل رسمني في «بئر الحرمان»، يبدو أنك نسيت يا كي كي كو».

«لم أنسَ طبعًا، لكني سأرسمك بحب صادق، ليس تمثيلًا كهؤلاء. ستبدين أجمل بكثير معي من أي صورة رُسمتِ لكِ من قبل، بل من أي صورة على الإطلاق، من أي امرأة في الدنيا.. من الحياة نفسها!».

أغمضت عينيها وضحكت بحبور، وقالت بين شهقات الضحك: «ليس أمامك الكثير من الوقت. لن تكمل الطريق إلى شاطئ إيطاليا. ولكي أختصر عليك طريق الوهم؛ لن تُرسل النقود لأمك، ولا ستشتري جهاز أختك.. دعك من أوهامك هذه وفُز بقبلةٍ أخيرة، وحاول أن تحتفظ بطعمها حتى يحين اللقاء.. هناك، على الجهة الأخرى. رفقاؤك يضيّعون الوقت القليل المتبقي في الصراخ، وأنت في الجدال».

طأطأ رأسه واستجاب ليديها الملساوين، بينما تحتضنان رأسه وثريحانه فوق وسادةِ صدرها المبتل، ثم أخذت تمشّط بأناملها الرقيقة خصلات شعره الملبّدة، فيما ظل الماء يعلو، ويغمر جسده ببطء.

أغمض عينيه أخيرًا، إذ غمره الصمت الفريح؛ صمتٌ لا يتخلّله إلا صدى صوتها الرقيق، القادم من عمقٍ سحيق، من حيث العدم

maktabah.blogspot.com

مكتبة
بيت الحصريات
maktabbah.blogspot.com

بس بس بس بس بس بس

يا كي كي كي كو

بس بس بس بس بس بس

يا كي كي كي كو

يا كي كي كي كي كو.»

*****

## سجال الليل الصامت

لا.. ليس ثانية!

كان هذا ما خطر لذهنه إذ أحس فجذا بضغط المثانة، يطرق أحشاءه كما البرق. لن يستطيع إيقاظها لمرة ثانية، فهذه المرة ستحنق بشدة، أكثر من أي مرة سابقة.. «ألا تفرغ هذه المثانة أبدا؟»، هكذا ستقول بنبرة مُستشاطة، أو بتهكم تقول: «يبدو أن إدرار البول صار متعتك الوحيدة الباقية!»

هي لا تتعمّد إهانته حين تقول مثل هذه العبارات، هكذا يؤكّد الأولاد حين يُجالسونه في غيابها ويُطيبون خاطره، هي أكثر طيبةً من أن تقصد الإهانة المباشرة، خاصة أمام الأولاد، لولا عصبيتها الشديدة التي تزداد شفرتها حدة كلما تقدّم بها العمر، وقد بلغا هو وهي من العمر أرذله، وأسخفه، وأثقله على القلب، حين تصير تزجية الوقت أكثر ما يُنتظر من المرء

كثيرًا ما قال لها - في سره فحسب - إنه الأولى بعصبيتها الشديدة هذه، لكونه مريضًا بالسكر منذ ما يربو عن النصف قرن. لو قال ذلك على مسمع منها، لكانت ردّت عليه بلسانها الشبيه بمضرب الذباب، قائلةً: «الاسم أنك أنت من أصابهُ السكر.. أما الفعل فأني أنا من أتحمّل القرفَ بزمّته.. لم يأتني من ناحيتك إلا القرف والصنان!»

لا، لا يمكن أن يوقظها

هكذا حسم قراره، قبل أن يميل بنصفه الأعلى الأجدر على الحركة - وإن كان نسبيًا - نحو جانب السرير، ويشرع في مدّ ذراعه الدقيقة المهتزة، محاولًا أن يطول المبولة الموضوعة أسفل السرير. كانت بعيدة عن مناله، مدّ ذراعه لآخر ما استطاع،

فلم يلمس إلا طرف مقبضها البلاستيكي الخشن. حاول التقاط المقبض بإصبعه، لكنه تملّص منه ذات اليمين وذات الشمال.. نهض بصدره ومدّ رقبته، عافر للوصول سنتيمترًا إضافيًا في اتجاه المبولة. لامس طرف المقبض بأنملتيه، حاول إحكام قبضته عليه، لكنّ سرعان ما انقطع نفسه، وهوى عائدًا إلى المخدّة القطنية المشبّعة بالعرق

بعد ثالث محاولة، ساءل نفسه: ماذا لو استطاع أن يمسك المبولة، وتمكّن من تخطي باقي العقبات، مثل فك زر سرواله، وإدخال عضوه في فم المبولة ذي الحافة المشرشرة، ثم يفرغ حصرته بداخلها ويجاهد حتى يُعيدها إلى الأرض، دون أن يسكب منها أي شيء، فماذا يكون منها فيما بعد؟.. لا بد أنها ستقوم بتوبيخه بأكثر الألفاظ فظاظة حين تصحو من النوم، وتشمّ نتن البول الذي صار يُفعِم هواء الغرفة سيئة التهوية. بل من الجائز ألا تتوقّف عند هذا الحد، فتمرّ على بناتها وأبنائها وأخواتها بالمكالمات الهاتفية، لتشكو إليهم ما كان منه، وما تُعانيه طوال الوقت من قزفه ولا مبالاته، وبدورهم سيواسونها في بؤسها ويظنون به الظنون. كما قد يصل طشاش الكلمات لآذان أحفاده، فيقرفون منه هم كذلك، ويتمادون في التمنّع عن تقبيله حين يزورونه في المناسبات. الأدهى من كل ذلك، أنها قد تعود لحديثها الجارح عن ضرورة ارتدائه الحفاضات، وتُحدّث أبناءها بحتميّة استنجار ممرض مقيم، يبذل لأبيهم حفاضاته حين يبلّ نفسه

لا، لا يريد التعرّض لمثل هذا بسبب بولة تافهة. يمكنه أن يتصبّر قليلًا حتى تذهب الحصرة من تلقاء نفسها.

تعجّب لحاله، وحالها، ماذا تريد منه هذه الشرسة؟! توجّب عليه ألا يوقظها حالما تروح في النوم، أيًا ما كان خطبه، كما عليه ألا يُقلق نومها الخفيف بخربر بوله المقزّز، وعليه كذلك ألا يُفسد لها هواء الغرفة العطنة في الأساس.. كل هذه الأمور تُثيرها لدرجة الجنون. ماذا عساه أن يفعل إذًا؟ هل عليه أن يحتجز البول في زاوية أخرى غير المثانة الملتهبة؟!

تبًا لكِ امرأةً متطلّبة بلا قلب!

لا زالت المبولة بعيدةً أسفل السرير. لو حاول معها ثانيةً سيُصيبه الشد العضلي المميت، الذي داهمه قبل أيام حين أراد أن يحك ظهره، ولم تُفلح قربة المياه الساخنة في معالجته. يا رب.. الألم يضغط في باطن عانته، كأنه نصلُ خنجر. ربما يفتر لبرهة، لكنه يُعاود الضغط عليه بعدها بعنف أشد. كيف الخلاص إذًا من هذه

مكتبة
maktabah.blogspot.com

الخرقة المميتة؟!

لا بد من إيقاظها؛ لا مهرب آخر من هذا العذاب.

استدار نحوها. وضع كفه عليها بأقصى خفة ممكنة، تردد لبرهة، قبل أن يشرع في هزها بلطف بالغ، ثم بارتباك، وأخيرا بشدة أكبر قليلا، وبجزع تام

ليس ثمة استجابة لهزاته المتفاوتة، تساءل: متى استحال جسمها لهيكل عظمي يابس على هذا النحو؟!. مع أن شهيتها للطعام تفوق شهيته معظم الوقت. قد يكون لكثرة ما تتحرك في جنبات البيت؛ أما هو فراقد طوال اليوم، كأنه كسيح.

عاد يهزها من جديد، بجسارة هذه المرة، البول يضغط مثانته، وضغط المثانة يوتر أعصابه ويشنج أطرافه، يدفعه نحو المزيد من التسرع، من المخاطرة بكل اعتبار، والاستهانة بالتبعات.. ناداها بصوت خافت، عاود مناداتها، رفع صوته في المرة الثالثة، هزها بعنف، صاح فيها مناديا بخرقة لاهية

لا فائدة فيك!

«هل مت؟»، سألها فيما يتحسس أنفاسها. لامس شعيرات شاربها النابتة، لاحظ كيف استطالت ويبست على نحو غريب، لم تغد تهتم بنفسها منذ أعوام.

عاد لهزها والصراخ فيها وقد ضيق اليأس خناقه عليه. ارتجفت ذراعاه على نحو ضاعف اضطرابه، صار العظم يصطك ببعضه فيصدر صوتا غريبا، لا يعقل أن يكون حقيقيا. صدرها المفلطح راكد تماما؛ لا يعلو، لا يهبط. لا يمنح الأمل في أدنى استجابة. ما العمل الآن؟ هل يهاتف جاره عبد السلام؟ ليس الوقت مناسبا للاتصال.. عبد السلام! لقد مات الرجل قبل نحو أسبوعين، كيف نسي موت جاره عبد السلام؟! هل لأنه لم يحضر جنازته؟ إذا عليه أن يتصل بابنته دعاء. البنت على مسافة عشر دقائق مشيا على القدمين، لكن.. هل ينفع أن يجعلها تذرع الشوارع في أنصاف الليالي؟ وهل بإمكانه الإمساك بنفسه حتى تجيء الفتاة؟ أم يعملها على نفسه؟! ماذا عن المرأة الميتة؟ هو حزين لفراقها ما في ذلك شك، لكن البول يضغط مثانته فوق الاحتمال، يكاد يفجرها، ويسمم بدنه بمخزونها الحارق، يكاد يقتله هذا النصل المغروز في عمق عانته.. الحرقة تشتت أفكاره، تغيم مشاعره، فتجعل الإمساك بها مستحيلا الآن، كل شيء يفلت من يديه حتى المنطق السديد، الذي لطالما اشتهر به.

هل ماتت بالفعل! هل مت؟، سألها.. ماذا لو كانت ماتت بحق، كيف يتصرف غدا؟ بل كيف يتصرف بعد ساعة أو ساعتين، حين يعاوده الحصر من جديد؟

maktabah.blogspot.com

ماذا عن الآن؟! كيف يشيل همّ المستقبل ويتناسى الآن؟ أي منطق!

تقلّص تمامًا جلدُ وجهه، كأنه غسيلٌ معصور، تبلّلت مقلتاه، طفرت الدموع من جانب عينيه وسالت حتى أرنبة أنفه. إنه حزين جدًا، منقبض الصدر، غاصّ الحلق باحتقانٍ خانقٍ يكبح تنفّسه، والحصر يشقّ جسمه من الوسط، كأنه حدّ السيف

إنه خائف جدًا، خائف مما هو عليه الآن، ومما يمكن أن يحدث له بعد ساعة أو ساعتين. لا يليق أن تجده ابنته على هذه الحال الشائنة حين تمرّ في الصباح. لا يليق أن تودّع أمّها على سريرٍ تفوح منه رائحة الصنان. يجب عليه أن يتماسك بعض الشيء، أن يكون على قدر الموقف المهيب، أن يحفظ كرامته وكرامة زوجته، أن يحتفظ باحترام أولاده، أهم شيء الأولاد، وأيضًا الأحفاد، لو ظلّ ممكنًا الاحتفاظ باحترامهم

لكن كيف؟ البول ضاغط؛ البول حارق؛ دافئ.. مريح.

انتهى الأمر. تلاشى الانقباض القاتل، كأن لم يكن. تفكّكت أوصال جسده واسترخت عضلات بطنه، تهاوى جفناه، ارتخت أطرافه المتيبسة، وعاد لعظامه صوتها الطبيعي. ليس البلل شعورًا سيئًا لهذه الدرجة التي كانت تُفزعه. بل إنه شعور مريح، دافئ، يُهدهِد نصفه الأسفل ويلطّف جلده، يُعيده لحالة الطفولة اللا مبالية، حيث لا يحمل المرء همًا ولا يحسب حسابًا لأي شيء. شعورٌ يمنح الخدر الذي يتوق إليه، يُثقل جفنيه بالرغبة في النوم.

ليس عليه الآن إلا أن يُرجئ التفكير في كل شيء، حتى الصباح، هكذا أكّد لنفسه قبل أن يستدير ببطء ويضطجع على جانبه، ويحتضن الجسد البارد الأصمّ، الساجي بجواره لا يستشعر أدنى عناء.. كل ما عليه فعله الآن، هو أن يُغمض عينيه، ويُذعن فقط لسلطان النوم.

*****

## صفحة بيضاء

بلا اسمٍ ستمضي، بدءًا من اليوم

باغتني الصوت، كأنه قرعُ جرس. أيقظني كأنما لأخلق من جديد. كان صوتًا باطنيًا ربما، غير أنه أشدّ وقعًا من أصوات العالم.

لم أحفل باسمي يومًا، لطالما استثقلته، حاولتُ لصقَ أسامٍ أخرى بوجهي المعكوس

maktabah.blogspot.com

في المرآة ولم أفلح، شيءٌ ما ظل يُساورني أن لن يلتصق بهذا الوجه اسمٌ آخر، أهملتُ الفكرة ومضيتُ حاملًا مشيئة أبويّ.

كمُنت الفكرة بداخلي حتى صرتُ لا أدرك وجودها، نمت لها أطرافٌ ثابتة وغشاءٌ حامٍ، وحين فاجأتني كانت أكثر تماسكًا وقدرةً على اقتحامي.. لماذا يُفرَض على البشر حملُ أسماء لا يختارونها؟ ماذا لو عِشنا كسائر الخليقة، بلا أسماء، نعرف بعضنا كما يعرف الراعي أغنامه والزارع نخلاته، كما تعرف الحبلى جنينها قبل أن تهبه اسمًا يُثقِل كاهله، يصير بديلًا عنه في الأوراق الرسمية وفوق شاهد القبر.

لن أكون مِتولّي بدءًا من الآن، ولا ياسر ولا محمود، لا هيثم لا أكرم لا جمال.. أنا أنا، فقط، وحين أموت سأوصي بترك شاهد القبر خاليًا من أي اسم، صفحة رخامية بيضاء غير موسومة بذلك الوشم الأزلي.

حدّثتُ نفسي أن لا بد من محو الوشم، لن أجيب أحدًا يدعوني بتلك الكلمة التي التصقت بوجهي رغمًا عني.. حدثت زوجتي:

«من اليوم، لا تُناديني مِتولّي».

«هكذا أناديك بين الناس، أما فيما بيننا فأقول ميتو».

«لا ميتو ولا مِتولّي، ولا أي شيء آخر».

«إذًا، ماذا أقول؟!»

«لا شيء».

كنتُ حاسمًا في طرح الفكرة، عازمًا على التنفيذ مهما عانَدت، لكنها عادت تستفزني فيما نشرب الشاي: «لا أستطيع التأقلم مع عدم وجود اسم أناديك به».

«أمرٌ مؤسف، حيث لم يعُد لي اسمٌ تُناديني به».

«أحتاج وقتًا لاعتياد الوضع الجديد».

«لك ما تشائين، لكني لن أجيبك لو ناديتني كما في السابق».

«إذًا، سأناديك بأي اسمٍ يخطر لي».

«لن أردّ».

مكتبة بيت الحصريات
maktabbah.blogspot.com

«براحتك».

منحني التمرُّد حماسةً طازجة، وصلابةً كنتُ أحسبها ذكرى باندة. أما هي، فاستجابت لصلابتي كما لم تفعل من قبل؛ غُنج فوّار، بَوح سافر لا جشمة فيه. وفي أوج انصهارها قالت: «كفاية يا حسن، تعبت».

«حسن! حسن مَن؟!»

«أنت».

«قلتُ إني بلا اسم..»

«لا بدّ من اسم أشتهيه، أنت الآن حسن.. غدًا خالد».

كرهتُها.. أمعنتْ في كراهة الأسماء. كانت عبئًا، فصارت خصمًا عليّ التسلّح في مواجهته، وصرتُ مُضطرًا لحمل السلاح مهما ثقُل عليّ؛ اسم جديد كل ليلة.

*****

## خزانة المائة نفس

مكث ليومين كاملَين يبحث في كل مكان يخطر لذهنه؛ تفقّد جميع الدواليب، قلّب أدراج وذرف التسريحة ونكّث ما بداخلها، فتّش أدراج المطبخ، دسّ يده في جيوب البِذل، قلّب جميع البناطيل وأخرج أحشاء السُترات، أفرغ خزانة الجزم على الأرض ونفّض الأحذية القديمة.. كاد في ذروة اليأس أن ينكسر، أن تخوز عزيمته، غير أن الغضب كان أشد، فاستمرّ يدفع به لتكرار البحث حتى شارف حافة الجنون.

اندفع يذرع البيت رواحًا وجيئة بملابسه التحتية، كان متعرّقًا بشدة، مهوّش الشعر، لا عقلانيًا أبدًا، حتى إنه كسر عددًا من بلاطات أرضية الحمام، بدَت له في غمرة اليأس والغضب مُتقلقِلة، أزاحها من مكانها وفتّش الرمل المشبّع بالرطوبة أسفل منها. لم يجد شيئًا بالطبع، فانهار خائر القوى، وارتمى فوق كسارات البلاط والرمل المتناثر، خلع فانلته الداخلية، وأخذ يُجفّف بها عرقه الغزير، فيتفصّد المزيد.

غام ذهنه بسؤالٍ وحيد لا ثاني له: أين المفتاح؟!

كلما استجمع تركيزه أذابه العرق الغزير، بذْره الملح المترسّب فوق سطح الجِلد. ليومين مُتواصلَين يُفتّش عن المفتاح في جميع المخابئ المحتملة، امّحت ذكراه كأن لم تكن، والباب المُصفّح عنيد، لا يرضى بالتفاوض أو الحلول الوسط، إما أن

يولج المفتاح بداخل الكالون، أو يظل حبيسا خارج الخزانة.

منذ يومين أو يزيد، لم يعبر لداخل خزانة الملابس؛ لم يطعم أولئك المعلّقين بداخلها وجبةً جافّة واحدة، كالتي يدسّها عنوةً في أفواههم في اليوم مرتين، لم يسقهم شربة ماء. مكث يتخيل هيئتهم البائسة من أثر الصيام؛ يتدلّون من شماعات الدواليب كالشياه الذبيحة، وقد ضمرت أجسادهم كالملابس المغسولة. انتابه الأسى العميق، ليس لتعاطفه معهم بالطبع، بل لشعوره بالمسؤولية تجاههم، تجاه إطعامهم وسقايتهم والعناية بهم، وتبديلهم كما يفعل كل مساء؛ ينزل المعلّقين فوق الشماعات، يطويهم بعناية، قد يسوّي أطرافهم بمكواة البخار، ثم يرصّهم فوق الأرفف السفلية، ويعلّق مكانهم أولئك الذين أمضوا يومًا مطويين أسفل الخزانات.

ذهب للنوم أول أمس، شاعرًا بكدر شديد الوطأة، فقد كان يرغب بشدة في اصطحاب سلمى معه إلى الفراش، في هذه الليلة على وجه التحديد. وكان قد قضى ساعةً في الحمام يغمر جسمه في المياه الدافئة، تحت طبقةٍ كثيفة من الرغوة الفواحة بالعطر، يدلّك أطرافه على مهل، ويتأكّد من تفتّح مسامه لاستقبال كل رعشة مثيرة من جسد سلمى، قبل أن يرتدي البرنس القصير ويمشي حافيا حتى خزانة الملابس. هنالك وقف يطالع الباب المفصّح، وسيماء الحيرة تغلّف ملامحه، فلم يكن يذكر أين خبأ المفتاح.. عادةً ما يغيّر مكانه كل بضعة أيام، حفاظًا على سريّة الخزانة، يبتكر كل مرة مخبأ جديدًا لا يخطر على بال مخلوق، ويزداد غبطةً كلما كان المخبأ عصيًا على التوقّع، ولم يحدث قط أن نسي المكان الذي خبأ فيه المفتاح آخر مرة، فما هذه الأرواح المعلّقة أو المطوية بداخل الخزانة إلا جزيئات من روحه هو، بغيرها لا يكون لحياته نفس الطعم الذي يدمنه. ولذلك لم يفتر للحظة عن البحث، لم يترك يومها مكانًا إلا وفتّش فيه، حتى غلبه النعاس الشديد، فاقتعد على الأرض بجوار باب الخزانة، ونام مسندًا ظهره لسطحه البارد.

حين أفاق من نومه، كان الألم يرتع في منتصف ظهره صعودًا هبوطًا، فلم يكن قد نام قط في مثل هذا الوضع البائس.. قال في نفسه: «ليس خسارة فيك يا سلمى»، ثم نهض سريعًا وأنهى بلهوجةٍ حمامه الصباحي، ثم شرع يبحث من جديد على امتداد اليوم، حتى الجوع والعطش لم يثبّطا عزيمته، فكان يصنع الشاي فيما يعبث في أدراج المطبخ، ثم يفتح رغيف خبز ويحشوه بأي شيء تقع عليه يده بداخل الثلاجة، ويعاود البحث دون فتور. لكنه انهار من فرط التعب مع انسحاب آخر ضوء، فنام في مكانه حيث جلس ليستريح قبل قليل، على المقعد الهزاز في غرفة المعيشة.

maktabah.blogspot.com

في اليوم التالي أعاد الكرّة، بيأس أكبر هذه المرة، بتوتر أشد. سيموت المعلّقون بالداخل لو تأخّر عليهم أكثر من ذلك. سيموت عليوة إخصائي التدليك السمين ذو الأصابع الغليظة. ستموت إقبال مستشارته المالية وحاملة حقيبته، فضلًا عن كونها حافظة أسراره. ستموت ألفت المختصّة بأظافره، والتي تنتف كذلك شُعيرات وجهه وتُقلّم الشعر النابت من منخريه، ويلطمها حين تقترب منه أكثر مما يجب. لن يتحمّل موت سيد، خبير المزاج ومخطّط السهرات، أي كارثة ستواجهه لو حدث ومات سيد! ماذا لو ماتت مروة، صاحبة الرقم القياسي في تحمّل لطماته وعصبيّته، تلك المختصّة بترتيب غرفته وكيّ ملابسه؟ أو سلمى، وسادته الطرية الملساء وأحبهم جميعًا لقلبه.. هل يصبر على غيابها أطول من ذلك؟! قدماه تشكوان ليس من كثرة ما ذرعتا أرجاء البيت، بل من طول ملامستهما لخشونة الأرض، بعد أن اعتادتا الاتّكاء فوق بطن سلمى وفخذيها الملساوين.

تسع وتسعون نفسًا معلّقة ومطويّة بداخل خزاناته، كان يخطّط لأن يُتمّها مائة نفس، لكنه لم يجد بعد مَن يستحق الانضمام لباقته المنتقاة.

خارت قواه تمامًا في تلك الليلة، التي أمضاها نائمًا بجوار الباب، في ذلك البرزخ الغائم بين اليقظة والنوم، حتى استفاق في الصباح على القرع المدوّي لبائع الأنابيب، فأخذ يرنو لما حوله في محاولة لاستنباط مكانه، لاستيعاب مآله.. ثم تذكّر ما كان عليه واستعاد شعوره بفداحة المأزق. أدرك مدى يأسه وذكنة مشاعره. نهض إلى الحمام، بتثاقل وهوان وشعور فادح بالخِزي. خلع لباسه الداخلي، وقذف به في سلة الغسيل، ودلف لداخل كابينة الاستحمام لا يكاد يصلب طوله. ترك الماء الساخن ينساب من فوقه، حتى كاد ينام على نفسه، فحاول إنعاش نفسه بسَكْب الشامبو ذي النكهة الاستوائية فوق رأسه، وتركه ينداح فوق جسمه دون تدليك، ثم أعاد قارورة الشامبو لموضعها فوق الرف، فتقلقلت القارورةُ وسقطت على جانبها، مدّ يده ليعدلها فسقطت من جديد.. دعك وجهه جيدًا حتى تلاشت بقايا الشامبو، وشحذ تركيزه لكي يُعيد القارورة لوضعها الصحيح. تحسّس سطح الرف المعدني أسفل منها، فاصطدمت أصابعه بشيء يابس، مبتلّ، مُراوِغ.. إنه المفتاح!

جفّف المفتاح بيدين مرتعشتين، وخرج يتعثّر في ارتباكه وعُريه، راسمًا برشاش الماء طريق خزانة الملابس. أولج المفتاح بأصابع مهتزّة، أداره، ودفع الباب بتوجّس. اخترقت أنفه رائحةُ العطن. أغلق من خلفه باب الخزانة حتى يختلي بمصيبته.. مضى يفتح تباعًا درف الدواليب، ينظر للأجساد المتداعية بداخلها، فيما تتكاثف رائحة العطن مع كل خطوة، ويجثم التوتّر أكثر فأكثر.

maktabah.blogspot.com

شرع يحرك الأبدان المعلقة، تلك التي رقت حتى استحالت جلدا فوق عظم، وتلك المطوية التي هبطت كثيرا عما كانت عليه حين تركها. تبدى الخواء داخل كل جثة، ليس ثمة نبض يتحسسه، لا دليل على وجود حياة، ليست سوى أعضاء متهدلة يمسكها جلد مكرمش، تفوح منه رائحة العدم.

ثمة درفة وحيدة لم يفتحها في نهاية صف الخزانات، فتحت من تلقاء نفسها، تأرجحت في هواء الغرفة الثقيل، المفعم بالموت.. تقدم نحو الدرفة، تحمله ساقان ترتعدان، جذبها لتفتح عن آخرها، فتهاوى جسد الشيخ، وانطرح بثقله على الأرض.

كان الشيخ بيومي يلفظ أنفاسه الأخيرة، يرمق من وضعه الجنيني ذلك الماثل أمامه ممسكا بدرفة الدولاب، ذلك المبثل، المخذول، الذي ارتأى مسحة عتاب في نظرة الشيخ الجاثم على الأرض، فأخبر الشيخ بأن لا حاجة الآن لنصائحه المكرورة، البائتة، التي لم تنفعه يوما قبل هذه اللحظة، وكذلك لن تنفعه الآن، حدث نفسه بأن ليتني ما ضممت يوما هذا البغل لمجموعتي، ولا شغلت به مكانا بداخل خزانتي.

أمسك مفتاح الخزانة بقوة بين إبهامه وسبابته، وجثم فوق جثة الشيخ بيومي المقوسة، أدار وجه الشيخ ناحيته وجذب لحيته الطويلة الشعثاء، فاتحا فاه عن آخره، ثم ألقمه المفتاح.

تحشرجت أنفاس الشيخ حين كاد يبتلع المفتاح، فأدخل أصبعيه في فمه، وأخذ يدس المفتاح لأبعد ما استطاع بداخل حلقه، قبل أن يحشو حنك الشيخ بشعر لحيته.. سرعان ما تأكد من اختناقه، فأقعى مكانه بداخل الخزانة فوق الرف السفلي، وأسبل جفنيه، واستدعى النوم.

*****

## وليمة الحواس

لم أكد أصدق أذني يوم وافق على إجراء الحوار. وكان معروفا باعتداده وحدته، وبعزوفه عن لقاء الصحفيين، وأنا الصحفي الشاب آنذاك، حديث العهد بالمهنة، وغير المدعوم من فلان أو علان، لذلك قررت أن أجعل هذا أول سؤال أطرحه عليه حين ألتقيه، على ألا يكون ضمن أسئلة الحوار المنشور بالطبع: «لماذا قبلت طلبي إجراء حوار معك؟»

وقد فاجأتني إجابته، يوم قابلته في المطعم الفاره المتواري داخل أحد الفنادق

maktabah.blogspot.com

المطلّة على النيل، إذ أجابني قائلًا: «وافقتْ بسبب قمصانك الغريبة المشجّرة هذه».

والتفتَ مُشيرًا إلى النادل الأنيق، الذي ما إن لمحه حتى أتاه مُهرولًا وقال: «تحت أمر سعادتك يا فنان»، فأخذ يُمليه طلباته للغداء، مُتردّدًا قليلًا في اختيار طبق الشوربة الأنسب لحالته المزاجية، ومُنحازًا لطبق من السلطة يحوي أنواعًا غريبة من الفاكهة، وصفها بأنها تجعل الطبق «شكلَه يجنّن».

ثم أومأ إليّ حتى أملي طلبي، فاعتذرتُ بأن هذا ليس موعد غدائي، فسخِر مني قائلًا إن موعد غداء الصحفيين يحين فور توقّفهم عن الثرثرة، وراح يُطالع قائمة الطعام من جديد، وقال: «دعني أختار لك شيئًا تفهمه»، وأخبر النادل بالطبق المطلوب، مُوجِّهًا بأن يُقطّع اللحمَ لقِطعٍ صغيرة قبل تقديمه، ثم شرح لي السبب: «حتى لا تلخم نفسك بالتقطيع».

لو حدث ذلك من شخصٍ غيره، لكنتُ شعرتُ بإحراج فظيع ولسعيتُ لإنهاء المقابَلة، لكنني أحسستُ بارتياح كبير في رفقته، واعتزاز لكوني أجالس نجمًا لامعًا مثله.

بدا أسمن قليلًا من ذي قبل، بوجهٍ متورّد وصافٍ تمامًا، ربما بفعل النبيذ الفاخر الذي كان يعبُّ منه كل حين؛ يسكبه بمقدار، ثم يرفع الكأس ويشتمُّها حتى يملأ صدره من عبقها الكحولي، ثم يدلقها دفعةً واحدة في جوفه مباشرةً، ويترك النبيذ يتخلل خلاياه ويُحدث أثره.

سألتُه: «ما بال قمصاني المشجّرة؟ وكيف صارت تأشيرة دخولي لعالمك؟»

فضحِك بصوتٍ عالٍ وناعمٍ معًا، وقال: «قمصانك الرخيصة العجيبة هذه، تبوح بأنك لا تحفل بالمظاهر، وهذا تحديدًا ما أبحث عنه فيمن أقرّبهم مني. لقد سئمتُ الناس بالفعل».

بدأت الأطباق تهبط تباعًا على المائدة؛ أطباق بديعة التكوين، كأنها واردةٌ للتو من مطبخ الجنة، تفتح الشهية على مصراعيها وتُسيل اللعاب.

«كُل.. لا تنكسِف»، قال فيما يفرد منديل المائدة فوق حِجره، «دَعْك من السكين؛ لستَ بحاجة إليه، لا أحد يُراقبك»، ثم أكمل يقول: «لو راقبك أحدٌ لاستحوذ القميص على جُل انتباهه!»، وشرع يضحك ويلتقط بطرف الشوكة قطع الفاكهة التي تُزيّن طبق السلطة.

أخذ يجاوب أسئلتي بأريحية تامة، ويضرب أمثلةً يُثبت بها آراءه المدهشة؛ أحيانًا يُعرّج على بعض الفضائح والمواقف التي خبرَها بنفسه، مؤكّدًا على أنها «ليست

للنشر»، وكنتُ أحترم ذلك طبعًا، فأوقِف التسجيل وأضع القلم حتى يسمح لي بإعادة تشغيله. لذا كان يختم كلامه مع كل موقف قائلًا: «أنا واثق فيك، لهذا سأخبرك بالمزيد»، وهكذا يفعل.

الغريب أنه لم يتذمّر من كثرة أسئلتي، بل صار يُضيف المزيد من عنده، فيقول مثلًا: «لم تسألني عن السبب في كيت وكيت»، فأبدي اهتمامًا بطرق هذا الباب أو ذاك، فيستفيض وحده في إجابة السؤال الذي اقترحه، وكلما راقت له إجابة صريحة أو قصة مُثيرة من النوعية غير المجازة للنشر، كان يُنادي على النادل ويطلب إليه أن يُضيف صلصةً ما فوق قطعة اللحم، أو أن يُعيد تسخين طبقٍ فقَد حرارته.

ثم وجدتُه يرفع منديل المائدة إلى فمه، ويمسح شفتيه بخفة وتأنٍّ، فرأيتُ أن اللياقة تُحتِّم أن أتوقّف مثله عن الأكل، فالتقطتُ بعجالةٍ آخر ما تبقى في طبقي من قطع اللحم، ووضعتُ شوكتي قائلًا: «ذوق حضرتك في الأكل هائل بحق».

قال: «ألف هنا وشفا.. كفّل أكلك»، فقلتُ إني امتلأتُ تمامًا وليس لديّ مُتسع للمزيد، فأومأ برضى وسرَح يرمق إطلالة المطعم عبر الحاجز الزجاجي.

قال بعد قليل، وكان لا يزال يرنو عبر الزجاج: «سأصارحك بشيء إضافي، لا يصلح للنشر أو للتسريب تحت أي ظرف»، فتنبهت جميع حواسي ترقّبًا لسبق جديد، وأومأتُ إليه مُشجّعًا حتى يستكمل حديثه؛ قال: «لقد فقدتُ تمامًا حاسة التذوُّق، قبل سبع سنوات».

صمتُّ في محاولةٍ لاستيعاب مقولته، ثم قلتُ باندهاش: «كيف فقدتَها؟!»

فأجاب: «خُرّاج عميق في الأسنان، أدى لإصابة العصب المسؤول عن التذوُّق».

قلتُ: «هل أنت جاد؟!»

فضحك قائلًا: «أتظن أني أهزَر معك يا ذا القمصان المشجّرة؟!»

أصابني ارتباكٌ مؤقّت، لكنني استجمعتُ نفسي قائلًا: «العفو يا أستاذ»، ثم أكملتُ: «لكنك تأكل بشهية لم أرَ مثيلًا لها من قبل».

فقال: «لا تنسَ أنني ممثّل كبير!»، وأطلق ضحكةً صافية أخرى، وأشار للنادل: «أين الحلو؟»

«حلو أو حاذق.. يفرق معك؟»

«شكله يفرق، وإحساسه داخل الفم.. الكريمة الناعمة، الرقائق الهشة، المكسرات المحمّصة. متعة».

سكتُ لبرهة، أتحسس اللائق من غير اللائق من الكلام، خشيةَ أن أجرح غلاف الراحة الذي صار يلفُّنا معًا. أخيرًا قلت: «لو كنتُ مكانك لاخترتُ أرخص مطاعم البلد لأملأ بطني بأي طعام والسلام».

«أصدّقك بالطبع، لو أنك مكاني بقميصك المشجّر هذا لفعلتَ ذلك، أما معي فالأمر يختلف. «أشعلَ سيجارة رفيعة من علبةٍ صغيرة طوليّة، وأكمل يقول: «حين تفقد حاسّة ما، تفقد خُمس نصيبك من لذة الحياة، فتحتاج لأن تعوّض نفسك بإذكاء باقي الحواس». امتصّ نفسًا عميقًا من السيجارة النحيلة وأردف يقول: «الأحرى أنك تفقِد خُمس حياتك؛ فما الحياة إلا حواسّ خمس متّقِدة، تُمكّنك من امتصاص العالم المحيط. تخيّل لو أنك فقدتَ البصر، والسمع، والشم، والتذوّق، واللمس.. ستصير جثة هامدة، ألا تتفق؟»

أومأتُ موافقًا، وقلت: «وكم عوّضتَ من الخُمس المفقود؟»

فسارع يقول: «من الخُمسين، الشم والتذوّق؛ عادةً لا تفقِد واحدةً دون الأخرى. وأستطيع أن أخبرك أني عوّضتُ الخُمسين بنسبة كبيرة، فأنا أغذّي البصر والسمع واللمس بأقصى ما أستطيع، والأمر ممتع بحق، وأظن أني استمتعتُ بالطبق الشهي الذي شاهدتُه ولامستُه واستمغتُ إليه، فوق ما استمتعتَ أنت».

«استمغتَ للطبق؟!»

«بالطبع؛ ضربات الشوكة، صرير السكين، رنين الكأس.. أجد اللذة في كل تفصيلة أمنحها التركيز المناسب. أما أنت، فتأكل كنِصف ميّت».

جرّبتُ منهاجه حين وُضِعت أمامنا أطباق الحلو، والحق أني لا أعرف حقيقةً إن كنتُ قد استمتعتُ أكثر من المعتاد، أم أنه أفسد عليّ متعة الأكل بالتركيز الزائد؛ الأكيد أني قضيتُ فترةً بعد اللقاء، كنتُ خلالها أكثر تنبّهًا للتفاصيل ورغبةً في عَيش الحياة بعمق وتركيز، حتى إنني أرجأتُ نشر الحوار لعدة أسابيع، كيلا أفقد مذاقه سريعًا.

وسرعان ما نسيتُ الحوار بعد النشر، حتى استعدتُ ذكراه يوم مات الرجل؛ ماتت حواسّه الباقية، فأعلنوا رحيله، وأعدتُ نشر الحوار كاملًا دون حذف أول سؤال،

فقد كنتُ فخورًا أني منحته لذة النظر لقمصاني المشجرة.

*****

## الأحجيّة

مرّ يا سيدي أسبوعٌ منذ التقيته، منذ تحدّث إليّ بإيجاز وحسمٍ كبيرين، قائلًا: «تأتيني الخميس المُقبِل، فإما أقتلك، أو أمنحك أيّ شيء تريده، إذا أتممتَ ما بدأته قبل سنوات».

لا بد أنك تتعجّب الآن؛ لِمَ لم أسأله عن مقصده؟ الحقيقة أني حاولتُ السؤال، بطريقة أو بأخرى، وإن لم أجرؤ أن أفوه بكلمة. كان حاسمًا لدرجة تُصيب بالخرس، وما كان ليُجيبني لو أمكنني سؤاله، فقد أنبأتني عيناه البرّاقتان- كنتَ لتوافقني لو أنك رأيته- بأنه قد يغفر لي أيّ ذلّة، إلا أن أعجز عن فهمه.

أمضيتُ الأيام أحصي الاحتمالات، أسأل المُقرّبين، أستعيد الذكريات، أتأمّل صوري القديمة وتلك الأحدث منها، أسائل عينيّ الفرحتين، القلِقتين، الذابلتين، التائهتين؛ ماذا خبرتُما قبل سنوات؟ فيما شرعتَ؟ أكان خيرًا أم شرًّا؟ لو كان خيرًا فلماذا تخاذلتَ عن إتمامه، وإن كان شرًّا فلماذا يريد لي أن أتمّه اليوم؟

ثم كان أن ازددتُ ارتباكًا، حين تكشّفت لي أبعادٌ جديدة للأحجيّة؛ ماذا لو أتممتَ الفعل المقصود؛ أيقتلني، أم يُكافئني؟! أذكر كلماته على وجه الدقة: «تأتيني الخميس المُقبِل، فإما أقتلك، أو أمنحك أيّ شيء تريده، لو أتممتَ ما بدأته قبل سنوات». لو تأمّلتَ العبارة كما تأمّلتُها - مِرارًا وتِكرارًا - ستبدو لك مع الوقت مُلتبِسةً بدرجةٍ كبيرة، ظاهرها يوحي بالدفع نحو فعلٍ طيّب، وباطنها يحتمل النقيض. ربما قصد تحذيري من إتمام أمر ما؛ سأقتلك، لو أتممتَ ما بدأته قبل سنوات! لِمَ لا

هكذا صارت الاحتمالات يا سيدي، لا نهائية. تناوبَت عليّ خواطر عديدة؛ أول صلاة جماعيّة مع زملاء العمل، أول إكراميّة تقاضيتُها لإنهاء معاملة مواطن مستعجل، أول زيارة لبيت عمّي السجين، أول قُبلة محمومة لزوجته الشابة، أول مُحادثة جنسيّة، أول تبرّع بالدم.. كلها أفعالٌ منقوصةٌ لو اردتَ الدقة - واحسب أنك لا تريد غيرَها - خيرها محصورٌ في خانة التجمّل، وشرُّها لا يفوز بثمرةٍ تستحق.

مرّت الأيام السبعة دون الوقوف على الفعل المقصود، فضلًا عن إتمامه، وها أنا ألجأ إليك ألتمِس النصيحة. بالأمس رفضتُ رشوةً كنتُ في مسيس الحاجة إليها، وفرشتُ الحصيرة الخضراء حيث تُصلّي جماعة العمل، وفي المساء هاتفتُ زوجة

عمي، ومررتُ ببيته عازمًا أن أتمّ الأمر، فطردتني، وجعلت عيون الجيران تتابع ذهابي جارًا خيبتي.

عليّ الآن أن أقرّر، هل أهرب منه لبعض الوقت، أم أسعى لمواجهته؟ ربما الأصوب أن أخبره: «ها قد فشلت؛ فماذا أنت فاعل؟»، أو أن أحمل سكينًا وأواجه مصيري، ربما يُسعدني الحظ فأجدهُ قد عاد من حيث جاء، أو يُفاجئني بأنه قصد الخميس التالي، ويكون في حالة مزاجية تسمح لي بأن أستوضح منه.. ربما وربما وربما، فبأي شيء تنصحني الآن، يا سيدي؟

*****

## في الركن المظلم

كانت تكرهني لسببٍ لا أعلمه، أو كنتُ أنا من يكرهها، ليس ثمة فارق، فلم أكره أحدًا من قبل إلا من أرى كراهيته تسطع نحوي بوضوح تام. لا أنسى عينيها البراقتين، اللتين يحيط بهما محجران عميقان، يتوسطان وجهًا مستطيلًا مقدودًا من حجر أبيض. كانت أيرلندية شديدة الشُقار، ربما بفعل الشيب الذي يتخلل شعرها الذهبي، فيحيله للون تائهٍ بين الأصفر والأبيض. وجنتاها غائرتان كالمومياوات، وعيناها خضراوان في لون الفستق، يتوشطهما بؤبؤبان عسليان يبقّيان في مخيلتي إثر كل نظرة تضرب بها أعصابي المشنّجة.

السيدة ماكارثي؛ هذا اسمها، مدرسة العلوم في الصف الخامس. كنتُ في غمر العاشرة حين انتقلتُ لمدرسة أيرلندية في مدينة الكويت، ذات مبنى مرتفع صغير تُحيطه باحةٌ رملية تبخّ الصهد طوال النهار، كأنما تشويه. قبل انتقالي كنتُ أدرس في مدرسة خاصة تديرها الراهبات الكاثوليك؛ مدرسة مشتركة، تستحمل الذكور حتى الصف الرابع الابتدائي، ثم تقذف بهم بعيدًا عن الفتيات خشية أن يتفوا العاشرة. كانت أيامًا حزينة وقاسية، تلك التي تركتُ فيها مدرستي المحببة لقلبي، رغم قسوة الراهبات. كنتُ متعلّقًا بجدرانها السميكة ذات اللون الأصفر المبهج، وفصولها الصغيرة ذات المكيفات الشباك بأزيزها المزعج. أتصوّر أن سببَ تعلّقي بها هو وجودُ أخواتي البنات الأكبر سنًا في نفس المدرسة، كنتُ أستشعر الأمان حين تمرُّ إحداهن خارج الفصل، فتنظر إليّ نظرةً مبتورة من الشباك المطل على الطرقة الخارجية، وربما تلوّح نصف تلويحة قبل أن تسرع بالذهاب، وإذا ما تأخر أبي في المرور بنا بعد نهاية اليوم الدراسي، أستطيع اللعب مع أصدقائي المنتظرين مثلي بأمان، فدائمًا ما أجد من تأتي لاصطحابي في اللحظة المناسبة تمامًا، وربما تحمل

عني حقيبتي كمكافأة على استجابتي السريعة، وتركي الملعب الرملي على الفور.

أما السبب الآخر المحتمل، فكان وجود زميلتي نيڤين، المصرية السمراء، ذات الشعر الأسود الفاحم. كانت أول فتاة أشعر حيالها بدفقة شوق غامضة؛ أول جريمة عشق أتلبس بها أمام أمي، إذ اكتشفت منديلا ورقيا كنت قد أعددته ودفسته في قعر حقيبة المدرسة، لكي أدسه خفيةً وسرًا في حقيبة نيڤين، آملا أن ينقل المنديل شعوري المبهم في صورة قلبٍ مرسوم بأناة، وحرفين مرتجفين، يفصلهما سهمٌ مائل. ارتاحت أمي لوقوع أداة الجريمة في يدها ليلة التنفيذ، فصار بإمكانها أن تتستّر عليّ، هدّدتني بإبلاغ أبي حال كرّرتُ فعلتي الشنعاء، لم أكن أخشى تهديدها ولو بدرجة طفيفة، فقد كنت أعلم أن مبادرة جريئة كهذه ستفرح أبي لو سمع بها، لكونه كان يخشى عليّ من خجلي الشديد حيال البنات، ويودّ أن أتلحلح ولو قليلا. لكن حين رأتني أمي أوغل في الحزن وأنزوي طويلا في سريري، رقّ قلبها وصارت تُخفّف عني؛ تقول إن ستر الله أوقع المنديل في يدها دون غيرها، وهي سترني وغطائي، وأن عليّ أن أشكر الله أن رتّب الأمور على هذا النحو. لم أشكره بالطبع، فغاية أملي وقتها كان بلوغ المنديل مرماه المقصود، لكي يُفصِح نيابةً عني بما فشلتُ في الإفصاح به. أما ما قالته أمي عفوَ الخاطر، وكان سببًا فعليًا في التخفيف عليّ، فكان أني سأترك المدرسة شئتُ أم أبيتُ بعد ثلاثة أشهر، «أكنتَ ستفرح عند هذه اللحظة لو أن الرسالة وصلت زميلتك؟ أم كنتَ ستندم لا محالة؟ فكّر في الأمر». وبالفعل، فكّرت، وارتضيتُ أن أحتفظ بصداقة نيڤين، على المخاطرة بإغضابها وفقدانها إلى الأبد.

كان علينا الاختيار بين انتقالي لمدرسة خاصة للبنين، تُدرّس المنهج الحكومي المعتاد باللغة العربية، ويدرُس فيها ابنٌ لأقرب أصدقاء أبي، أو الانتقال لمدرسة دوليّة كما أصرّ عمي الطبيب حامل الشهادات، التي ينوء بحملها حائط عيادته. ظل أبي حائرًا في الاختيار؛ زيادة هائلة في المصروفات، مسافة أبعد، لغة عويصة تعيقهم عن مساعدتي في الفروض المنزلية، وفوق ذلك خوف أمي الشديد عليّ من الاختلاط بالفتيات الأجنبيات، المنفتحات على كل شيء. استقرّ رأي أبي نهاية الأمر أن يترك لي حرية الاختيار، أو بالأحرى عبئه؛ طفل لم يبلغ العاشرة بعد، يقرّر وحده مصيره الغامض. اخترتُ المصير الأكثر غموضًا، فقد كنتُ مبهوزًا كما جميع أسرتي بنموذج العم الفريد حاصد الشهادات، وأبنائه الذين لا يفهمهم أحد حين يتحدّثون فيما بينهم، كما رغبتُ في مُخالطة أولئك الفتيات الأجنبيات اللاتي تخشاهن أمي؛ قد أجد بينهن من تُعوّضني خسارة نيڤين.

انتقلت لمعسكر الأيرلنديين الأكثر صرامة من الراهبات الكاثوليك؛ اللغة العربية ممنوعة منعًا باتًا لا فصال فيه، من يُضبَط بجريمة التحدُّث بالعربية، سواءً في الفسحة أو بداخل الفصل، أثناء الدوام أو حتى بعده، ينال بطاقة حمراء؛ ثلاث بطاقات حمراء تعني توقيع عقوبة مُشدَّدة؛ الحبس خلال أوقات الفسحة لثلاثة أيام، تحت رقابة الشقراء ذات الشعر الأشيب والعينين المخيفتين. تكرار العقوبة يعني الفصل التام لمدة أسبوع، والحق أن المكوث في البيت طوال أسبوع، وتحمُّل نظرات اللوم المستعرة في أعين المحيطين، لهو أهون بكثير من البقاء لساعة كاملة مع الشقراء الطويلة المرعبة. كنتُ أطالعُها سرًا أثناء فترة الحبس؛ تُمسك بكتاب أو روايةٍ سميكة مثنيَة الأطراف، وتقرأ في صمت تمثال، وجهها الأبيض ذو العظام الناتئة يُنذِر بقسوةٍ لا حدَّ لها. أين هذا من وجه نيفين، الأسمر الرقيق، ذي الخدَّين الممتلئين المتورِّدين، والحيوية المفعمة.

ثم سنحت لحظة انتقام لا تتكرَّر، سيغيبها وعيي الطفولي في مقبرة الجرائم الصغيرة. كنتُ لا أزال أعاني من صعوبة كُتُب المدرسة ذات الكلمات الإنجليزية المستغلقة؛ أحتفظ على طاولتي بقاموس سميك، ثقيل كمكواة أمي الحديدية، أقلِّب فيه مع كل جملة أقرؤها، أحيانًا مع كل كلمة. بدأتُ بقاموس المورد الكبير، مترجمًا جملةً بجملة من الإنجليزية غير المفهومة إلى العربية المعقَّدة، حتى تدخُّل عمّي ناصحًا أبي بأن أستخدم قاموسًا إنجليزيًا صِرفًا، وإلا فلن تتطوَّر لغتي وتكتسب المزيد من المفردات، وأظل أعاني إلى الأبد. عند هذه النقطة، تلاشى السراب الذي كنتُ ألاحِقه.. ما عاد ثمة أملٌ أسعى خلفه، صار العالم مُركَّبَ الأجزاء من كلمات إنجليزية غير مفهومة، تكلّ عيناي من قراءة سطور الكُتُب الدقيقة، وتعريفات القاموس الأكثر دقة، فأنام بعقل متورِّم، وتلمع في فضاء أحلامي كلماتٌ من عشرة أحرف، من خمسة عشر حرفًا، عشرين، كلمات كما سلاسل كونية تسبح في فضاء مُقبِض، أظل أبحث عنها بين صفحات قواميس تتطاير في الهواء، أحوم فيما بينها غاديًا رائحًا ببطء رائد فضاء، بلا بريق أمل.

نمتُ مُسهِّدًا ذات ليلة، واستيقظتُ قلقًا مما ينتظرني في حصة العلوم، حين تسألني الشقراء المرعبة عن فرضي المنزلي؛ أظنه كان متعلِّقًا بوصف دورات حياة الثدييات والحشرات والطيور وعمل رسومات بيانية توضِّحها، شيئًا من هذا القبيل. حملتُ القاموس الثقيل بداخل حقيبتي، كدليلٍ على محاولتي المستميتة فهم الدرس. فتحتُ الكتاب على الصفحة التي توقَّفتُ عندها بالأمس، ووضعتُ القاموس إلى جواره فوق طاولتي، والقلم الرصاص يرجف بين أصابعي كلما اقتربت الطويلة الشقراء. راجعتُ سريعًا كراسة زميلتي الجالسة بجواري، ثم

استدارت نحوي وواجهتني. أخذت ترمقني بعينين زجاجيتين يمتزج فيهما الزيتون والعسل، كأنهما بليتان من تلك التي نلعب بها وقت الفسحة.

«الفرض المنزلي»، قالت بصرامة، فشرعتُ أشرح معاناتي بكل إيماءة ممكنة؛ أحشر كلمات إنجليزية قليلة أعرفها في سياق أحسبه مفهومًا.. الدرس.. كلمات كثيرة.. قاموس.. قاموس آخر.. كلمات صعبة، كثيرة.. صعبة جدًا.. أشير لمحاولات كتبتها بخط صغير في هوامش الكتاب، أقرّب القاموس إليها، أفرّ صفحاته. بدأت ضحكات الزملاء تُفلت من محبسها، فصارت تلتفتُ إليهم يمنة ويسرة وتنثر نظراتٍ كالشُّرر المتطاير. «الصمت»، تقول، فيعلو الترقّب مُحلّقًا فوق رؤوس التلاميذ، ويضيق الخناق عليّ. عادت تُصوّب نظراتها الحارقة في عينيّ مباشرةً، رفعتُ إليها القاموس أشير لكلمة لم أستطع فهمها، فضربت بيديها العجفاء صفحة القاموس قائلةً: «توقّف!». سقط القاموس صافعًا جانب وجهي، وفي إثره سقط قلبي لأخمص قدميّ. صرتُ أرتعد من يدها الممتدّة نحوي لا أعرف مستقرّها القادم. مكثتُ مُنكفئًا على ذاتي المبلّلة، شاعرًا باختناق شديد يغصّ في حلقي، استمرّ معي حتى نهاية الحصة.

علا الضجيج حولي فانتبهتُ لنهوض الشقراء تأهّبًا للرحيل. كانت تلملم أغراضها حين لمحتها تُشير إليّ بسبّابتها الرفيعة المرعبة؛ اقترب.. توسّلتُ دون صوت: لا حاجة لاعتذارك، فقط اتركيني لحالي، أرجوكِ! وما إن صرتُ على مسافة ذراع منها حتى مدّت يدها بكارت أحمر جديد؛ كان ثالث كارت يلتصق بي. لم أكن لأتحمّل المكوث معها لساعات أخرى في الحبس الانفرادي؛ كان عليّ التخلص من خطرها الداهم بأية طريقة ممكنة، وكان من بين ما أخبرتُ به عن ميزات المدارس الدولية، أن الطلبة محميون تمامًا من عنف المدرسين؛ من يَضرب طالبًا يُفصل على الفور، فلماذا لا يكون الفصل مصير هذه الشقراء المرعبة.

قلّبتُ الأمر على وجوهه المحتملة، وفي المساء بدأتُ التحرّك. «ما وعدتموني به غير صحيح»، أخبرتُ أمي تمهيدًا لضربتي التالية. تركت تطبيق قطع الغسيل وقالت: «وما الذي وعدناك به؟»، حدّثتها عما حدث؛ عن معاناتي مع الفروض المنزلية، عن محاولاتي المضنية البائسة، عن منعي من الحديث مع زملائي باللغة التي نعرفها جميعًا، كل ذلك تحمّلته لأنهم أخبروني به مُسبقًا، لكن ماذا عن ضربي بعد كل هذا؟! «من ضربك؟!»، سألتني أمي بقلق بادٍ، فقلت: «مدرّسة العلوم، مسز ماكارثي»، قالت بفزع: «كيف ضربتك؟»، قلت: «على وجهي».. قلتُ ذلك وقد تأجّجت بداخلي شهوة الانتقام. فزِعت أمي لما سمعته، ولم يكن بإمكانها الذهاب

إلى المدرسة في اليوم التالي مُباشرةً؛ لا بد أن تحصل على إذن مسبق من العمل، لذلك كان عليّ الانتظار، فاضطررتُ لتفويت حصة العلوم، مُدّعيًا إصابتي بألم غير محتمل في معدتي، ومكثتُ طوال الحصة في دورة المياه، أصدِر أنينًا مصطنعًا على مسمع من المشرفين.

وفي اليوم التالي، عرفتُ بمجيء أمي حين استُدعيتُ من حصة الحساب. كانت بانتظاري في غرفة مدير المدرسة، وبجانبه تقف الشقراء فارعة الطول، على وجهها الرخاميّ سيماء عدم التصديق. «هل صحيح أنك تشكو مُدرِّستك؟»، سألني المدير، وترجمت أمي. تجنّبتُ النظر ناحيتها، وأومأتُ بالإيجاب. «تقول والدتك إن السيدة ماكارثي صفعتك على وجهك، هل أخبرتها بذلك؟»، أومأت ثانيةً ناظرًا نحو أمي التي ترجمت مقولته، فعاد يقول: «أجب بنعم أو بلا»، قلتُ بصوت متحشرج: «نعم». قالت هي من الزاوية المظلمة حيث كانت تقف: «نعم؟!»، فلم أعلّق.

قال المدير ما ترجمتهُ أمي بأنه سيمنحنا أنا والسيدة ماكارثي فرصة الحديث مُنفردَين، فيما يقوم هو باصطحاب أمي لخارج المكتب لمدة دقيقتين.. كنتُ أشعر بنظراتها مصوّبة تجاهي، تخترقني كأشعة إكس، ترمق هيكلي المجرّد من الكذب، لتعرضه أمام المنتظرين بالخارج. «أنا صفعتُك؟!»، سألت بنبرة وحشية خشنة، فقلتُ بجمود: «نعم، فعلتِ». بدهشةٍ أكبر كرّرت: «أنا، صفعتُك!»، قلت: «نعم»، وصمتُّ تمامًا حتى عاد المدير، دلفت أمي في إثره، عندها أكملت قائلًا: «فعلتِ».

ظلّت ذاهلةً حتى ذهبنا أنا وأمي. مُنِعت بعدها من دخول الفصل، فكانت لا تخطو خارج غرفة المدرّسين، وصرتُ أتجنّب المرور أمام تلك الغرفة ما استطعت. بعد أسابيع علمتُ بفصلها؛ أخبرتُ أمي، التي كانت تسألني كل بضعة أيام، ومنذ نقلتُ إليها الخبر صارت تقصُّ قصّتنا البطولية لجميع صديقاتها؛ تمجّد أنظمة التعليم الدولية، وتُباهي بالموقف الذي اتّخذناه، وأيضًا موقف المدير الأشقر الوسيم. يبتسِمُ إليّ فخوراتٍ بشجاعتي، فيخفق قلبي ويقفز لحلقي، أجاهد لأبتلعه من جديدٍ دون أن يلحظن، وأعصر جانب فمي في ابتسامة باهتة، تُطمئنهم أنني بخير. سرعان ما تخبو ابتسامتي، أخفض عينيّ هربًا من ركن الصالة المظلم، المجاور للأباجورة مقطوعة السلك، حيث يقف شبح السيدة ماكارثي ليل نهار، يرنو إليّ باندهاش.

******

# قانون الخبز

يُحسَب لعيّاد أنه عاد من غيابه الطويل خارج البلاد، بلا زوجةٍ أجنبية لا يُعرَف أصلُها ولا فصلها، ولا أبناء لا يعرِفون خُبز أجدادهم ولا طريقتهم في الحكي، كما يُحسَب له أنه عاد حاملًا لأبيه وأمه ثمار عشر سنوات من الكدّ والعرق، بل والتقشُّف، امتصّت سواد شعره الأسود الداكن، وشوّشت لكنته التي ما عادت خالصةً كحالها أمس.

فيما يُحسَب عليه تلكّؤه الطويل قبل أن يُقرّر العودة، وعدم اهتمامه بخطابات أمه صانعة الخبز، التي استمرّت ترسِلها إلى محل عمله مع مطلع كل شهر، كأنما لتُكرّر عليه خاتمة الرسالة مع كل راتب يتقاضاه: «لا زلنا نذكُرك يا عيّاد، ونذكر تلك الأيام السعيدة حين كنتَ تُرسِل إلينا نصف راتبك نهاية كل شهر»؛ إنها العبارة التي ظل يتحاشى سماعَها وجهًا لوجه من لسان أمه المعروف بالسلاطة.

ها هو اليوم يعود، بعد أن ذهبت أم عيّاد بسلاطة لسانها؛ يعود ليجد المأساة قد وقعت بالفعل، وأعفته ليس فقط من لسان أمه السليط، بل من وجودها بالكليّة.

والمأساة بدأت يوم انتزع المغاوير رُقعةً من أرض الله الواسعة، غرسوا فيها نواةَ حكمهم باسم الله الواحد الأحد؛ أحاطوها بتحصيناتهم، وأخذوا ينقلون إليها الرجال والعتاد كل جُمعة، وراحوا يجوبون الشوارع والطرُقات في عرباتهم ذات الأسطح المكشوفة والرايات السود والمصابيح المُقطّبة؛ يخترقون الأسواق في ذروة الزحام، ويَضُمّون عرباتهم على هيئة قوسٍ مُصوَّب نحو العامة المتجمهرين، المزروعين في أماكنهم يخشون الهرب، يرمقونهم من خلف لَثمهم السوداء، يبحثون عن نظرةٍ لم تنكسِر بعد، أو رجفةٍ لم تُحدِث أثرَها كاملًا في تحطيم الروح، فيصلبون صاحبها فوق صارية منصوبة خلف العربات، أو يحبسونه بداخل قفصٍ ويُضرمون فيه النار.

هكذا أقام المغاوير شرعتهم ورفعوا كلمتهم على أسنّة بنادق سوداء، وفوق نسيج شارات سود، حتى عمّ السواد القلوب والبيوت واستقرّ الغم. صارت الرجفة تسري في أطراف الناس لو جاء ذِكرُ المغاوير ولو بشكل عابر، وما عاد اللون الأسود يُعيد للأذهان ذكرى الموت وحده، بل رعشة الذعر وذلّة الهوان.

لم تلحق أم عيّاد بزمرة الخائفين من بطش المغاوير، كانت لا تُعنى بما يُردِّده الناس، ولا تحمل همًا إلا همّ البيت والفرن، وغياب عياد، الذي هجر أمّه التي أرضعته من ثديها وتوقّف عن إجابة رسائلها. وكانت لا تعبُر حدود البيت إلا لحضور

قُداس أو نصف إكليل. إذ لم يكن فُرن أم عيّاد صانعة الخبز إلا حوشًا مُلحقًا بالبيت، ومنه ظل الخبز يخرج كل صباح، ويُطعم سكان الحي حتى آخر زقاق.

وما كان لعيّاد أن يتعرّف بيته المبني من الطوب الأحمر، لولا وجود شجرة الزيتون في مكانها من حوش البيت، ولولا تأكيد جارهم الأسطى مصطفى، صاحب صالون الحلاقة المجاور للفرن، والذي اصطحب عيّاد منذ عاد من غيابه، وجاء به لكي يُعاين بنفسه آثار المأساة؛ إذ بدا البيت مهجورًا مُحطّمًا كأنه طلَلُ مدينةٍ بائدة، الطابق الأعلى مُهدّم تمامًا، والسلم الصاعد إليه عارٍ مكشوف الرأس، كأنما يشكو الفجيعة للسماء، وأجولة الدقيق المكوّمة تحته مبقورة البطون. أما الفرن، فقد وجده مُسودًا تمامًا من أثر الحريق، بخُبزه وطباليه ومرضاته الخشبية.

قصّ عليه الأسطى مصطفى، كيف اقتحم سبعةٌ من المغاوير الضخام فرنَ الخبيز، حاصر خمسةً منهم أم عيّاد، مُلصقين جسدها المكتنز مثل العجين بفوهة الفرن، التي كانت تبخُّ الصهد منذ الفجر، فيما أخذ اثنان آخران يضْبَان الكيروسين في محيط الحوش، ويُشعلان النار قبل خروجهم مُقتادين أم عياد صانعة الخبز، جذبًا من شعرها الأبيض مثل كومة قطن.

وقف الأسطى مصطفى بين زمرة الجيران التي تبعثرت لتُفسح الطريق للموكب الأسود، والتي لحِقت بعربات المغاوير سيرًا على الأقدام حتى حلقة بيع السمك، وتابعوهم فيما يوثقون جسدَ أم عيّاد، ويربطونه في صاريةٍ خشبية مُقتلَعة من مركب صيد قديم، كانوا قد نصبوها عند قدومهم لإحراق المُعارضين.

وما كانت صانعةُ الخبز من المؤيدين ولا المعارضين، كانت تصنع الخبز فقط، وتبيعه إلى الجميع بمن فيهم جنود المغاوير، غير أنها استبعدت تمامًا أن يكون صِدقًا ما نقله الجيرانُ عن تحريم أمير المغاوير لصناعة الخبز، حتى إنها قالت لبعض النسوة مساء اليوم السابق: «ما تقُلنه مجرد هراء، ثُردن به قطع عيشي ودفعي لهجر المدينة كما فعل الكثير من أبناء مِلّتي. ولعلمكن، لن أترك بيتي حتى يعود ولدي عياد، الخائب النذل، بل لن أترك بيتي إلا ذاهبةً إلى القبر، حين يُريحني ربي من وجوهكن العكِرة!»

وهكذا كزّزت على أذن الأسطى مصطفى، صباح يوم المأساة، قبل أن تشرع في إعداد العجين كعادتها كل صباح، لكي تبيع الخبز لزبائن الفرن حين يأتون بعد قليل كما كانت تعتقد، رغمًا عن حسد الجارات وحقدهن الدفين.

قال لها الأسطى مصطفى: «يا أم عياد، ألا تنظُرين! الزبائن لا يأتون خوفًا من

الأمير، لقد أصدر فتواه في جمعة الأمس بتحريم أكل الخبز، قال: إن خَبزَ العجين يحتاج للخميرة، والخميرة مصغّر للخمر، أي أنها تُحيل الدقيق لما كان كثيرُه مُسكِرًا، فقليلُه إذًا حرام!»

وحين لوّحت نحوه بيدها المخضّبة بالعجين، علامةً على استهتارها بما يقوله رجلٌ مخرّف مثله، أصرّ عليها قائلًا: «صدقيني يا أم عيّاد، أقسم بحياة ابني زياد وابنك الغائب عيّاد، لقد منع الناس من شراء الخبز، وأمرهم بالتخلّص مما في بيوتهم والاستبدال به أرزًا أو عجينًا غير خمران، كما يفعل الناس في بلاده البعيدة التي جاء منها لكي يُقيم شرع الله».

أم عيّاد، برأسها المجبول على العناد وقلبها المرتاب دومًا فيما يُضمره لها الجيران، أصرّت أن تصنع الخبز كعادتها وألا تسمع كلام أحد، لا كلام الجارات الحقودات، ولا كلام الأسطى مصطفى صديقها القديم وأخيها في الرضاع، ولا حتى تأتأة زوجها أبي عياد العاطل دومًا عن العمل، والذي أرسلته منذ طلعة النهار لكي يتقصّى الشائعة ويستوثق من كذبها.

لكن سرعان ما فاح خبزُ الخبيز مثلما فاحت رائحته، فأقبلت عربات المغاوير لاستيقاف من خالف الفتوى. حدجتهم أم عيّاد فيما يقتحمون باب الفرن مُقنّعين بالسواد، وأطلقت صوبهم نظرتها النارية التي تُخيف بها الزبائن، وصاحت فيهم بأنها لا تُصدّق بلوغهم هذا الحد من الجنون؛ «هل تُحرّمون طعامَ الأطفال، ومُقيمَ أود الناس؟ هل تُحرّمون لحمَ المسيح وصالب أكتاف الفقراء؟»، لم يمهلوها أطول من ذلك، إذ جذب واحد من المغاوير السبعة شعراتها البيضاء، وانتزع منه خصلةً قصيرة علّت لمرآها آهاتُ الجيران المتجمهرين، أولئك الذين شهدوا إحراقها صامتين، عاجزين حتى عن هشّ ذبابة كانت تحوم حول رأس أم عياد المبلّل بالعرق. حتى اقتطاع نسيرةٍ من لحم صانعة الخبز، وإطعامها لكلاب السوق، لم يجد من يحول دون حدوثه.

هكذا أتمّ المغاوير العرضَ المشهود، ثم أقبل أميرهم في موكبٍ من العربات ذات الأسطح المكشوفة، التي تحمل رجاله الملتحِفين بالسواد، حاملي البنادق السوداء والرايات السود. انتصب الأمير واقفًا أمام صارية المركب، التي تعلّق فيها جسد صانعة الخبز المحروق، وأعلن على مسمع الناس عدمَ رضاه عما اقترفه المغاوير؛ قال إن إحراق المرأة قبل صدور قانون الخبز بصفةٍ مُعلَنة، أمرٌ يُنافي سماحة الدين، ولا يُعفيهم من الإثم كونه أعرب عن نيّته إصدار القانون في جمعة الأمس، وقال إنه

سينزل العقابَ على المتورّطين ويُصوّب الخطأ في أسرع وقت.

وبالفعل، لم يمر اليوم حتى كان القانون قد صدر عن أمير المغاوير، بتحريم أكل الخُبز وتجريم خَبزه وبيعه للناس، والأمر بمعاقبة مَن يُخالف ذلك بمائة جلدة بالسوط المغموس في الزيت المغلي. لكنّ أحدًا من مغاويره السبعة لم ينَل أي عقوبة، فقد عرف الأمير بما جرى من أمر صانعة الخبز النصرانية وليّة الطاغوت، وما أوجَب إحراقها ليس خَبزها العجين فقط، بل سبّها شريعة الله وإعلاء كلمة الباطل على الملأ، ما عقوبته الإحراق دون إبطاء وعلى مشهد من الناس. هكذا اعتبر الأمير ما قام به مغاويره موافقًا تمامًا لشريعة الله، ونبّه على الجنود بضرورة التضييق على النصارى، والقبض على مَن ينبس بنصف كلمة تسبُّ أحكام الشريعة.

«ليتك غدتْ مبكرًا قليلًا يا عياد»، هكذا قال الأسطى مصطفى، «ليتك رحلتْ بأبيك وأمك بعيدًا عن هذه الناحية، ورجمتْ شيبتهما من هذه الأيام العصيبة»، ثم اقترح عليه أن يبحثا سويًا عن أبي عياد، الذي لا يعرف أحد أين ذهب منذ ذاك اليوم الأسود.

فيما كان عياد مشغولًا بتأمُّل خصلة شعرٍ بيضاء، كانت ملقاةً لصق جدار البيت. رفعها إليه، وأخذ يَحدّقها تحت أشعة شمس الظهيرة، ثم جثا على ركبتيه وراح يحفُر حفرةً صغيرة أسفل الجدار، وضع بداخلها الخصلة الناعمة، وأهال عليها التراب.

*****

## كادر

في ظُلمة القاعة الكبيرة؛ حيث لم ينفجر الصخب بعد، وحيث الصوت لا يزال يأتي من بعيد، والضوء لا يصدر إلا عن شاشة عملاقة وحيدة في ركن القاعة، تنقُل بخزبس كامل وقائع الزفّة التي تجري بالخارج

تحت سقف القاعة هائل الارتفاع، وبين جدرانها العالية البعيدة عن المنال، جلس إلى الطاولة المخصّصة لأسرته، مُطأطئ الرأس، يرمق سلسلة مفاتيح أمه التي يتعلّق فيها أملَ الخلاص

بدت المفاتيح مُغويةً لدرجة غير مُحتملة؛ مفتاح البيت يلمع ببريق أزرق خافت، ويرقد أسفل منه مفتاح السيارة في وضعٍ عامودي؛ سيارة أمه المركونة في جراج

الفندق، حيث يمكنه التحرُّر من الحذاء اليابس، والطيران بعيدًا عن كل شيء.

مدّ يده أسفل المفرش الأبيض الثقيل، مُحاولًا تخليص كعبيه من قبضة الجلد اليابس.. كم يكره الأحذية الجلدية، خاصة هذه الكلاسيكية اللامعة، التي تُلبس لأجل النفاق العام.

«ازيك يا رمزي».

استدار مأخوذًا نحو مصدر الصوت، فيما حطّت فوق كتفه يدُ ابن عمه؛ كان واقفًا بقامته الطويلة وراءه مباشرةً، حاملًا طفلته الرضيعة الملفوفة في شال أبيض، يرنو نحو الشاشة العملاقة التي تعرض زفّة العروسين.

ربّت كتفه قائلًا: «الصوت عالي جدًا على البِنت، خافت من دق الطبول، على الله يخلّصوا بسرعة».

ثم أكمل يقول: «عقبالك يا رمزي».

طالع ابن عمه بابتسامة غير مُكترثة، وعاد يرمق سلسلة مفاتيح الخلاص. منذ زمن لم يعُد يذكُره، توارى اسمُه خلف اسم أبيه. لا أحد يناديه (محمد).. منذ توقّف الجميع عن مُناداته (حمادة)، صار (رمزي). أمه فقط مَن لا زالت تُناديه (محمد).

«إنت هنا يا محمد؟! ما حضرتش الزفة ليه يابني، إحنا بنستخبّى من الناس!»

تناول هاتفه وأخذ يُقلّب فيه، هربًا من حديث أمّه المُمِل. سرعان ما انشغلَت هي بدخول العروسين؛ ذلك المشهد الأسطوريّ، الذي سيتنذّر به الحضور طويلًا بدءًا من هذه الليلة. فتح الواتساب، وكتب اسمَها في خانة البحث؛ (مليكة).. انبجست أمامه محادثته معها؛ قائمة رسائل لا نهائية، يفصِل بين كل رسالة والتي قبلها عدّةُ شهور؛ «كل سنة وانتي طيبة»؛ «مبروك النجاح»؛ «طمنيني عليكي»؛ «هتشوفي ماتش مصر فين؟».. كانت قد توقّفت قبل سنوات عن الرد على رسائله. خرج من المحادثة؛ قرّر مسحها؛ سأله الهاتف إن كان واثقًا من رغبته في مسح المحادثة، داس: امسَح، ونظر إلى الواتساب وقد تخلّص أخيرًا من وجودها. فتح قائمة أرقام الهاتف؛ بحث عن (مليكة)؛ مسَح رقمها وتنفّس الصُعداء

التفتَ يرنو إليها فيما تُراقِص عريسَها؛ تُشبّك أصابعها خلف عنقه، تُركّز عينيها في عينيه، تُنوّمه، تُلامس صدرُه بثدييها، تُذيقُه الثمرتين، وتعِدُ بالأشهى

متى رآها آخر مرة تتعلّق برقبة وغدٍ مثله؟ ربما كانت فوق سطح البيت - بيت

العائلة - أو خلف ستار الظلام تحت السلم الرخامي.

رمزي! هوه شدّني بالعافية وانا طالعة البيت، ما تقولش لحد.. أنا بحبك يا رمزي وبثق فيك!

نظرت لذيل فستانها الذي تكوّم تحتها أثناء الرقص، فانحنى عريسها سريعًا يُخلّص ذيل الفستان من بين ساقيها. اندفعت فتاتان لمساعدته؛ إحداهما ابنةُ عمه، الأخرى أخته.. سرعان ما تحزّرت ساقاها وانطلقت تعدو بكعبي حذائها العاليين نحو الكوشة، فيما يهرول وراءها العريس المغدور.

كانت أجمل في السابق.. أكثر براءةً وخِفّة، رغم مكرها الحاد، وغنجها المثير!

حمادة شيللي الشنطة لو سمحت.

لطالما كانت تترك حقيبة المدرسة المنتفخة بالكتب، أمام بوابة بيت العائلة، وتُسارع بصعود السلم الرخامي الملتف حول المصعد العتيق. يظل يراقبها عبر الشبكة المحيطة بالمصعد، يتأمل ساقيها وسمانتيها الشهيّتين، حتى تتوارى بالأعلى، مثيرةً شهوته. يحمل الحقيبة ويتبعها مشدوهًا.

جلس المدعوّون يرمقون الشاشة، يتابعون فيديو العروسين؛ صور العريس أولًا، تستعرض بطولته في السباحة والفروسية منذ نعومة أظافره، هراء.. ثم صور العروسة؛ الغنج مجسّدًا في صورة طفلة، الاشتهاء في طور التكوين.. أخرج علبة السجائر، وأشعل سيجارة تؤنس وحشته.

نبّهته أمّه: «محمد، صورة مليكة في اسكندرية وانتو صغيرين، إنت اللي واقف ورا خالص ده».

كان يجلب لها مياة البحر في دلو بلاستيكي صغير، يسكبها فوق كومة رمالٍ ترتفع بين فخذيها، ويجلس يراقبها فيما تبني قلعتها الرملية في لباس البحر المثير.. تغرز أصبعها في صدر القلعة حين تنتهي، فتصنع تجويفًا يفضي إلى الداخل، ثم تقف تتأمل صنيعتها بافتخار شديد. تطلب إليه أن يحرس قلعتها، كي لا يهدمها الموج، أو تدوسها أقدام الأطفال؛ يقف لساعات، أو حتى يحين موعد الذهاب.

صورة أخرى في عيد ميلادها، محاطةٌ بأولاد العائلة. لمح نفسه في خلفية الصورة، منزويًا كالعادة، يلبس قميصًا مغلق الأزرار حتى عنقه، يرنو عابسًا صوب نقطة بعيدة عن العدسة، إذ لا تكاد تلمحه.

وابل جديد من الصور، يستدعي صيحات وإيماءات المدعوين، حتى يندفعوا فور انتهاء الفيديو لأجل التصوير مع العروسين، لتسجيل لحظات مماثلة تُبقيهم في محل اهتمام العدسة.

«تعال يا محمد نلحق نتصوّر مع العروسة»، جذبته أمّه من يده؛ تبعتهما أختاه.

إوعى يا رمزي مش شايفة منك!

نهرته ذات يوم، فيما يشاهدان فيلمًا أجنبيًا مع باقي فتيان العائلة. تزحزح بجسده فوق الأريكة. كانت تجلس على أحد المقاعد المصفوفة في الخلف، بجوار ياسر، ونادر، وشهاب، حيث لا يرى أيًا منهم، لكنه يستشعر حركةً غير مفهومة في صف المقاعد. قام تاركًا غرفة المعيشة. انزوى بداخل الحمام المجاور؛ كتم نشيجه.

اندفعت أمه صوب الكوشة، تسحبه من يده كما القربان، ارتقت المنصة، تركت يده واحتضنت العروسة، ومن ورائها ابنتاها، تتقافزان فرحًا، مزفّن جميعًا خلف أريكة الكوشة.

«يالا يا محمد نتصوّر!»، ناذته أمه.

اقترب. ارتقى أولى درجات المنصة، وواجه حامل العدسة.

«يا أستاذ.. ارجع لِورا لو سمحت.. سيادتك مغطي على العرايس!»

ظل واقفًا مكانه، يرمق المصوّر؛ ينتظر انغلاقة العدسة.

*****

## حديث المنفضة

نفض ذو الجلباب بدن سيجارته، مُواريًا لحمها المحروق في منفضة سجائر عطنة، عليها صورة ملكة فرعونية. ثم أعاد على جليسه العبارة من جديد، مُغلّفةً في سحابة دخان كثيفة: «احكِ لي الأمرَ من بدايته».

رمقه الآخر بدهشة، وباستسلام كزّر القصة عليه، منذ استيقظ صباح يوم ميلاده شاعرًا بثِقَل غير مفهوم، فدفّس قدميه في النعل الشتوي، وشدّ جسمه قائمًا، وتسنّد على أثاث الغرفة حتى بلغ التسريحة، فقرأ الرسالة مهتزة الأحرف التي ألصقتها زوجته فوق المرآة، كما تفعل دائمًا صبيحة عيد ميلاده، ما لم يوافق عطلةً رسمية.

كان ناسيًا اليوم، وذكّرته الرسالة؛ فقرّر أن يحلق ذقنه بماكينة حلاقة جديدة، احتفالًا بالمناسبة. وقف أمام مرآة الحمام، وأسبغ على أصابعه رغوةً أكثف من المعتاد؛ كان ذلك حين لاحظ اهتزاز رؤيته بدرجة أثارت قلقه. أضاء مصباح المرآة، وأمعن النظر في انعكاس وجهه؛ كان وجهًا آخر غير الذي يألفه! وجه رجل في السبعين، فيما لم تكد قدمه تتجاوز عتبة الخامسة والثلاثين إلا اليوم.

جفل لبرهة، مسح الرغوة بمنشفة كانت تطوّق عنقه، ودقّق النظر في الوجه الغريب؛ وجنتاه تهدّلتا، عيناه ضاقتا ذرعًا من طول ما حاصرتهما التجاعيد. سارع إلى غرفته، ووقف أمام التسريحة لا يعرف الخطوة التالية؛ طالع روزنامة كانت مُختبئة خلف علبة المكياج، واضطر لنزع وريقات منها قبل أن يصل ليوم ميلاده؛ إنه نفس اليوم الذي عرفه طوال حياته، عمّ يبحث إذًا؟!

استخرج البطاقة الشخصية من محفظته، وطالع بياناتها التي يحفظها عن ظهر قلب، عاجزًا عن تحديد ما يبحث عنه؛ لكنه تأمّل الرقم القومي عدة مرات؛ إنها نفس الأرقام التي يعرفها منذ الأزل، ما الجديد إذًا؟! الجديد أن الفارق بين سنة ميلاده في البطاقة، والسنة التي تكاد تذبل فوق ورقة النتيجة، سبعون عامًا! هي نفس الأرقام، لكن الفارق ليس نفسه، كيف؟ لا يعرف!

ما يعرفه يقينًا هو أنه حتى نام بالأمس، كان موقنًا بعمره؛ خمسة وثلاثين عامًا لا أكثر، تنقصها ليلة لكي تكتمل، ولم تكن هذه الغضون تُحاصر قسماته، ولا كانت وجنتاه مُستسلمتين للجاذبية الأرضية بهذا الشكل، ولا أوصاله مفككةً لهذه الدرجة.. سرٌّ غامض يحيط به، حياته ما عادت تشبه ما كانت عليه بالأمس.

اتّصل بزوجته لكي يخبرها بمصيبته؛ صمتت لبرهة، ثم قالت إنها تجمع الآن أغراض مكتبها بين نوبات البكاء، ولا ينقصها المزيد من العبث والتهريج، يكفيها أنها ستُحال إلى المعاش بعد أيام. فاتّصل بأقرب أصدقائه، ووجد رقمه غير موجودٍ بالخدمة؛ هاتف منزله، فردّ عليه شابٌّ معدوم الذوق، سارع إلى اتهامه بالجنون من أول عبارة، ووضع السماعة بوقاحةٍ تامة!

عاد إلى الروزنامة والبطاقة، مُحاولًا الإمساك بتلابيب عقله قبل أن يُفلت منه؛ الأرقام كما هي، والفارق ضعفُ المُعتاد! كيف؟ كان شابًا بالأمس، هذا مؤكّد، لم يكد ينسى آخر مباراة كرة لعبها مع أصدقائه، فيما الجميع يؤكدون عكس ذلك؛ يقولون إنه عاش الحياة طولًا وعرضًا، ويريد الآن أن يتنصّل من سنين قضاها، وطرُقات وطئها، ومذاقات استحلبها. هو لا يُنكر بالكلّية، لكنه لا يفهم، لا يوقن بشيء،

ويخشى انقضاء حياته دون أن ينال حقّه كاملًا

عاد ذو الجلباب من غيبوبته، وأطلق عبارةً مدغمة بين دفقات الدخان:

«وماذا لو وافتك المنية وأنت في الخامسة والثلاثين.. أليس هذا جائزًا؟»

«نعم جائز.. من منّا يعرف عمره!»

«فعن أي حقٍّ تبحث إذًا؟»

«عن حقي في سنوات احتُسِبت عليّ خطأً! قد أتقبل الموت لسبب أو لآخر، وفي أي سن، إنه قدرٌ لا حيلة لنا معه، غير أني عندها سأموت شابًا، ليس عليّ إلا ما عشته بالفعل، لا أحمِل إلا عمر زهرةٍ اجتُثّت من منبتها عن طريق الخطأ.. لكنْ أن يصيبني الذبول فجأةً هكذا، ثم أطالَب بتقبّل الأمر، فهذا غير ممكن!»

دفع سحابة دخان جديدة، وهو يتأمل الوجه الذابل والحدقتين المتوثّرتين، ثم دفن السيجارة في المقبرة الفرعونية العطنة، وأشعل أخرى قائلًا:

«الحياة عبءٌ لا يُحتمَل، فعلامَ تمسّكك بها؟ سَلْني أنا، إذ أقضي بين المقابر أطول مما أمكث في بيتي، وأتابع الأجساد فيما يُواريها التراب، فتنعم بالهدوء والسكينة لأول مرة بعد طول معاناة».

«لكني لا أزال شابًا، هكذا أعتقد على الأقل؛ ولا زلتُ لم أجد السعادة، ولا وجدتُ إجاباتٍ عن أسئلتي الكثيرة.. لستُ مستعدًا للموت!»

«وهل تظن أن غيرك وجد الإجابات؟ يا مسكين.. بل إننا جميعًا مساكين، نشغل أنفسنا بتفاصيل لا معنى لها، ثم نفاجأ آخر الأمر بأن الفرصة قد تسرّبت من بين أيدينا.. ها أنت تشغل أيامك الأخيرة بالدفاع عن حق وهمي، وتزج بنفسك في أزمة لا طائل منها».

«يبدو أنك مثلهم، لا تصدقني».

«ليس الغرض أن أصدقك أو لا أصدقك، لكنّ الأمور ستستوي لديك نهاية الأمر؛ ستخفُت من حولك الضوضاء، وتذهب لعالم الإجابات رأسًا».

شرد الجليس لبرهة، وقد امتدّت ظلال الدخان فوق جبينه، حتى أردف يقول: «أخشى أن أندم أن فوّتُّ فرصة المطالبة بحقي!»

«أظنك ستكتشف آخر المطاف أن الحقّ فكرةٌ غيرُ موجودة خارج أدمغة الناس،

فكرةٌ تنشج عن الصراع على الحياة، وتنتهي بنهايتها».

«أفهم من كلامك أنك تفضّل أن أستعيد مقدّم التعاقد على الشقة الجديدة، وأشتري به المدفن؟!»

فغرّ ذو الجلباب شفتيه عن نصف ابتسامة، وعلّق ساخرًا: «قبل ساعة من الآن، كنت سأنصحك بهذا، حيث إن لي مصلحةً مباشرة في شرائك المدفن. أما الآن، فإني أميل لأن أصدقك القول فحسب؛ لا فرق بين هذا وذاك.. تخلّص من أعبائك ومن أفكارك البائسة، عش يومك غير آملٍ في الغد، واترك النتيجة إلى المجهول..»

«ماذا لو مُتّ، أين أدفن؟!»

طوى ذو الجلباب عقب السيجارة فوق مقدمتها، ونفث دخانًا كان يحتفظ به داخل صدره، وقال: «ربما تعني: أين سيُدفن الجسد الذي ستتركه؛ عليك ألا تقلق بهذا الشأن، فالمحيطون بك سيجدون له مكانًا مناسبًا يُخلّصهم من رائحته. لا تشغل بالك».

ومدّ نحوه علبة السجائر، فقبلها أخيرًا.

*****

## قميص لتغليف الهدايا

كان البرد قد استقرّ عميقًا أسفل الجلود، وراح ينخر العظام دون ترفّق، وبدا الضجر المكتوم على وجوه الواقفين منذ ساعات في انتظار سيارة الموتى، وفي حركاتهم البطيئة الهامسة؛ إذ يُشعل أحدهم سيجارة تؤنسه وتنفث الدفء في أوصاله، ويستند آخر لسيارة مركونة غير عابئ بطبقة التراب، بعدما أنزل آخِرُ الدكاكين الصغيرة القريبة بابه المعدني، فتداعى آخِرُ أمل في تزجية الوقت.

الكلام؟ ما عاد هناك كلام يُقال؛ كل شيء قيل، من عبارات المواساة التقليدية وكلمات الترحُّم المعتادة على جميع أمواتنا وأموات المسلمين، إلى الأقاويل المتضاربة حول سبب الوفاة، وعن الأنظمة الصحية المشكوك في كفاءتها لكبرى الدول الشهيرة بالعلاج، حتى مصمصة الشفاه وُضِعَت في وقفات الصمت فيما بين العبارات، والأسئلة العادية معروفة الإجابات، قيلَت غير مرة، والسؤال – همسًا - عن الوقت، والسؤال – جهرًا - عن إجراءات الدفن ومكان الثرب، وعن إمكانية استدعاء الثربي في ساعة متأخرة كهذه.. كل هذا قيل، قبل أن يحلّ صمتٌ ثقيل موتِر،

ويجمّد الوقت ويكشف برودة الجو، وفراغ اللحظة من أي عبرة محتملة.

لم ينتبه أكثرهم حين وصلت السيارة وأنارت بفوانيسها سطح الشارع وتعاريجه. تنبّهوا فقط حين اضطرب والد الفتاة الصغيرة المتوفّاة، وقطع الرصيف بخطوات تتخبّط داخل معطفه الصوف. تحرّكوا في أثره دون صخب يُذكَر، وراحوا يراقبون السيارة فيما تعتلي الرصيف، وتفتح بابها الخلفي كما فمٍ يلفظ لسانه.

تردد البعض في التقدّم لحمل النعش الصغير، وأخذوا جميعًا يتأمّلونه بفضول؛ كان نعشًا عجيبًا مُضلّع الشكل، أبيض لامعًا، له مقابض فضية براقة، محفور الغطاء بصليب من معدنٍ برّاق. راحت العيون تتبادل أسئلةً شتى وتكهّنات غير معلّنة، حتى تطوّع أكثرهم شجاعةً - أو ضجرًا من تأخُّر الوقت - بحمل النعش لداخل المسجد، واستدعاء الإمام لصلاة الجنازة.

كان الداخل أدفأ قليلًا، ربما بسبب الحركة التي دبّت أخيرًا في الأجساد، لكن سرعان ما استعاد الجمود سلطته، وتفرّق المنتظِرون بين جالسٍ على أقرب مقعد، ومترنّع على الأرض، ومستندٍ لعمود رخامي مثلّج، فيما تحلّق أكثرهم حول النعش الصغير الموضوع على الأرض، يتسمّعون الحوار الهامس بين الأب المرتبك، وإمام المسجد الوقور، إذ قال الأخير:

«أرى أن نفتح النعش وننقل الجثمان لخشبة المسجد، ثم نُصلّي عليها ونتوكل على الله».

فقال الأب: «شركة الشحن أبلغتنا أن النعش موصد بمسامير، ملحومة الرؤوس بالرصاص، وهذا ما سبّب تعطيلًا كبيرًا في المطار».

فتبسّم الشيخ، وراضى الأب بقوله: «أيُرضيك أن نرذ وديعة الله داخل صندوق موشوم بالصليب؟»

تمتم الأب بارتباك واضح: «كل النعوش هناك على هذا النحو! لم نجد نعوشًا بلا صلبان، وقد رفض المستشفى تسليمنا البنت دون نعش ملحوم بالرصاص..»

فقال الشيخ: «كان الله في عونك يا أخي، إنما يُوفّى الصابرون أجرهم بغير حساب، لا أسألك إلا المزيد من الصبر.. نُخرج الجثمان، ونُصلّي على الفتاة».

تابعت العيون إمام المسجد فيما يدلف لداخل غرفته، تاركًا الجمع يتخبّط في حيرته. «معه حق»، قال البعض، فردّ آخرون: «تعنّت بلا مبرر»، «تشدّد ومغالاة»،

«تأخُر الوقت ولن نجد الثُربي صاحيًا.. لن تنتهي هذه الليلة!»

فيما انبرى عددٌ من العمليين في محاولة فك الغطاء، واستجلاب آلاتٍ من سياراتهم القريبة حين استعصى الأمر عليهم. مضى الوقت في محاولات يائسة، وتحوّلت حلقة الرجال لورشة تصخب بالدق والتخبيط، حتى تفاقم انفعال الأب الشاب وطلب إليهم التوقف فورًا عن المحاولة، وتوجه فور استعادة الهدوء لغرفة الإمام، فغاب طويلًا بداخلها ثم خرج وقد تجمّد وجهه على هيئة العبوس؛ «نحتاج لمتخصص في فض الأقفال والمفاتيح»، قال لهم، فراح البعض يشد أزره بربتات هينة على كتفيه، وآخرون يستذعون ذاكرة الهواتف المحمولة باحثين عن صانع أقفال.

مر قرابة ساعة أخرى حتى حضر الصانع، ونُقِل النعش الأبيض الصغير لداخل غرفة الإمام، التي تحوّلت سريعًا لورشة جدادة مصغّرة، فراحت المسامير الملحومة تفرقع بضجة رهيبة أشبه بطلقات الرصاص، وانتشرت في الهواء رائحة الشياط مع الشرر المتدفق في كل اتجاه، كأنه نافورة مياه.

أخذ الغطاء الأبيض الناصع يتهيّب بالسواد، ويتخلخل أكثر فأكثر مع كل طلقةٍ يتداعى معها مسمار عنيد. واستمر الصانع يحاول انتزاع الغطاء كلما انشقّ مسمارٌ في موضعه، غير أن محاولاته لم يُكتب لها النجاح التام، حتى بعد حلحلة جميع المسامير. فقد كان قفلٌ وحيد في انتظارهم بعد انتهائهم من اللّحامات، اكتشفه الصانع حين حاول رفع الغطاء فلم يرتفع؛ شرح لهم أن القفل مخبأ في باطن الغطاء، بحيث لا يَبين من الخارج

«أين صُنِع هذا النعش؟»، سألهم، فساد الصمت لبرهة، حتى تبرع أحدهم بإجابته: «في إيطاليا»، فعلّق الصانع: «شغل فاخر!»، وازدرد الأب ريقًا غصّ به حلقُه، وبدا عليه المزيد من الاضطراب حين تأهّب الصانع لفضّ القفل الحائل بينهم وبين كشف الغطاء.

«لحظة من فضلك»، استوقفه الأب، فنظر إليه الجميع متسائلين عما اعتراه، فقال بارتباك: «ممكن تتركوني مع الأسطى لوحدنا خمس دقائق؟»، فلم يجد منهم غير الصمت، والاندهاش، حتى تبرّع أحدهم بقوله: «هيا يا جماعة، لنتركه قليلًا.. هيا يا إخوانا»، واستمر يربّت ظهورهم واحدًا واحدًا حتى فرغت الغرفة إلا من الأب، والصانع، وإمام المسجد، فالتفت الأب نحو الإمام، وقال له: «بعد إذن فضيلتك، خمس دقائق فقط»، فاستغرب الإمام، ولمّ جُبّته الصوفية حول بدنه، وخطا ببطء

maktabah.blogspot.com

تاركًا الغرفة.

وقفوا جميعًا لصق باب الغرفة مترقّبين لما يحدث داخلها، واضطربوا حين سمعوا القفل يطلق السرّ المكتوم، إثر خبطةٍ واحدة من الصانع. تبادلوا النظرات، كأنما السؤال المنطقي الوحيد: هل ندخل الآن؟، غير أن أحدهم لم يتجرّأ على فتح الباب، فأحسّ البعض بطعنة نافذة، أن يُستكمَل كشف الغطاء دون حضورهم، بعد كل هذا الصبر.

ثبّت الأب الغطاء قبل أن يرفعه الصانع، وأومأ إليه حتى يتبع الرجال إلى الخارج، مخرجًا محفظته ومجزلًا له العطاء. وعاد لكي يكشف غطاء النعش عن صغيرته، وحيدًا هذه المرة.

كان الغطاء قد تهبّب تمامًا بعد عملية الفتح، وكذلك اسودّت يدا الأب، فراح يمسح الهباب عن كفّيه في المعطف الصوف، فيما ينظر بعينين مبرّقتين نحو فتاته النائمة بداخل النعش، محاطةً ببطانة لمّاعةٍ من الساتان الأبيض.

كان قد سلّم النعش لإدارة المستشفى، وسارع بالعودة لمصر حاملًا تقارير الأطباء، حتى يستخرج تصريح الدفن، تاركًا زوجته هناك تُنهي إجراءات شحن الصغيرة وتسلّم الجثمان. لم يكن يعرف ما تمّ في غيابه، ولا مَن قام بشراء هذا الفستان الأبيض المنفوش، كأنه لعروس صغيرة، ولا مَن قام بتزيين وجه فتاته على هذا النحو البديع، فمنحها خمرةً أبدية لم يزها على وجهها منذ أعوام، حتى أظافر البنت، بدت مشذّبة ومصبوغة الحواف باللون الأبيض، على الطريقة التي كانت تُحب، قبل زمنٍ ما عاد يذكره.

الآن يتذكّر كل شيء، ويرى كل شيء، يمتلئ لأشياء، برغم يأسه الشديد، وشعوره بأن الحياة لن تكون ممكنةً بدءًا من الغد، لا شيء ممكن، لا طعام ممكن، لا عمل، لا نوم، لا أي شيء.. غير أن عروسه بدَت جميلةً في نومها، بلا تقطيبة ألم، ولا حشرجة نَفَس تؤلمه وتشرخ صدرَه.

وضع الغطاء بهدوء لكي لا يُقلِق نومها، وفرش سجادة صلاة سحبها من كرسيّ خلف مكتب الشيخ، ووقف أمام النعش يُصلي عليها وحيدًا. وحالما انتهى، خلع معطفه السابغ، وأعاد مسح كفّيه جيدًا في سطحه الصوفي، ثم فكّ أزرار قميصه الأبيض وخلعه بهدوء، وقام بفرده فوق النعش الأبيض الصغير، وطيّ كُمّيه أسفل قاعدته، كما هديّة سيرسل بها إلى الله

maktabbah.blogspot.com

أما المنتظرون بالخارج، فقد انتابهم عجبٌ تام حين فُتِح بابُ الغرفة، وخرج إليهم الأب مرتديًا معطفه فوق فانلته الداخلية، حاملًا نعش فتاته الصغيرة مغلفًا بداخل قميص أبيض. وجدوه يعبر به وحيدًا لخارج المسجد، ويتوجه لسيارته المركونة أمام الباب. وضع النعش ببطء فوق المقعد الخلفي، وحاسب سيارة الموتى بأكثر مما طلب السائق، ثم ركب سيارته وأدار الموتور، وابتعد بهدوء، كاشفًا غربي الشارع بنور سيارته.

*****

## سيد المئذنة

سبعة، ثمانية، تسعة.. كان يعد الدرجات فيما يصعد سلم المئذنة الحلزوني، الضيق؛ عادته التي لم يفتر يومًا عن التلذذ بها، منذ اختار قمة المئذنة مركزًا لحكمه، يُتابع منه رعيته، يمارس سطوته، يُراقب العالم في صورته المُنمنمة التي تستهويه.

ثمانية وعشرون، تسعة وعشرون، ثلاثون.. من هنا، ورغم ذكنة الليل، يمكنه رؤية الفيطان المنبسطة كثوب أسود رقراق، النخلات المُقزَّمة البعيدة، الشخارة الممتدة عبر المصرف الصغير، الجسر الترابي، الذي يميل راكعًا عند مدخل البلدة، يرى حتى ذؤابة برج الحمام ذات الأشواك، وعروق الخشب البارزة أسفل قبعته، والأهم، يرى سطح المسجد ماثلًا أمامه بوضوح تام، حيث يترك رعيته مساء كل يوم، ويرقى المئذنة ليشرف عليهم.

ثلاثة وخمسون، أربعة وخمسون، اكتمل العدّ.. بإمكانه الآن أن يستريح. مسح كرسيّ عرشه بكفّه الخشنة، واقتعده. التقط الجوزة من تحت الكرسي، وضعها فوق سور المئذنة العريض، بجوار صفّين من الطوب المُهبب كان قد أعدّهما لإشعال الفحم، غرف حفنةً من «ظفش» الخشب، ووضعها بين صفّي الطوب، مع قليل من قُصاصات الورق الجاف، أشعل بقدّاحته الأوراق الهانشة، فبرزّت منها ألسنة النار وأمسكت أطراف الخشب. مدّ سيخين من الحديد فوق الكومة المشتعلة، وفرّد فوقهما قطعة من سلك البقلاوة مطويّةً لعدّة طبقات، وأخذ يرصّ سماسم الفحم فوق قطعة السلك، بتنسيق منتظم لا يمل أبدًا من تدقيقه، وجلس يتابع الفحم فيما يتأجج ببطء.

بعد قليل قام من مجلسه. وقف مُتكئًا على السور العريض، يُشرف على البقعة المُمتدة لمبيت العابرين، ويرمق بعينين متمرّستين صفوفَ الأجساد المرتصّة فوق سطح المسجد، مُنسلًا بنظراته بين فتحات المظلة التي تعلوهم. يبحث بين الأجساد

maktabah.blogspot.com

أما المنتظرون بالخارج، فقد انتابهم عجبٌ تام حين فُتِح بابُ الغرفة، وخرج إليهم الأب مرتديًا معطفه فوق فانلته الداخلية، حاملًا نعش فتاته الصغيرة مغلفًا بداخل قميص أبيض. وجدوه يعبر به وحيدًا لخارج المسجد، ويتوجه لسيارته المركونة أمام الباب. وضع النعش ببطء فوق المقعد الخلفي، وحاسب سيارة الموتى بأكثر مما طلب السائق، ثم ركب سيارته وأدار الموتور، وابتعد بهدوء، كاشفًا غربي الشارع بنور سيارته.

*****

## سيد المئذنة

سبعة، ثمانية، تسعة.. كان يعد الدرجات فيما يصعد سلم المئذنة الحلزوني، الضيق؛ عادته التي لم يفتر يومًا عن التلذذ بها، منذ اختار قمة المئذنة مركزًا لحكمه، يُتابع منه رعيته، يمارس سطوته، يُراقب العالم في صورته المُنمنمة التي تستهويه.

ثمانية وعشرون، تسعة وعشرون، ثلاثون.. من هنا، ورغم ذكنة الليل، يمكنه رؤية الفيطان المنبسطة كثوب أسود رقراق، النخلات المُقزَّمة البعيدة، الشخارة الممتدة عبر المصرف الصغير، الجسر الترابي، الذي يميل راكعًا عند مدخل البلدة، يرى حتى ذؤابة برج الحمام ذات الأشواك، وعروق الخشب البارزة أسفل قبعته، والأهم، يرى سطح المسجد ماثلًا أمامه بوضوح تام، حيث يترك رعيته مساء كل يوم، ويرقى المئذنة ليشرف عليهم.

ثلاثة وخمسون، أربعة وخمسون، اكتمل العدّ.. بإمكانه الآن أن يستريح. مسح كرسيّ عرشه بكفّه الخشنة، واقتعده. التقط الجوزة من تحت الكرسي، وضعها فوق سور المئذنة العريض، بجوار صفّين من الطوب المُهبب كان قد أعدّهما لإشعال الفحم، غرف حفنةً من «ظفش» الخشب، ووضعها بين صفّي الطوب، مع قليل من قُصاصات الورق الجاف، أشعل بقدّاحته الأوراق الهانشة، فبرزّت منها ألسنة النار وأمسكت أطراف الخشب. مدّ سيخين من الحديد فوق الكومة المشتعلة، وفرّد فوقهما قطعة من سلك البقلاوة مطويّةً لعدّة طبقات، وأخذ يرصّ سماسم الفحم فوق قطعة السلك، بتنسيق منتظم لا يمل أبدًا من تدقيقه، وجلس يتابع الفحم فيما يتأجج ببطء.

بعد قليل قام من مجلسه. وقف مُتكئًا على السور العريض، يُشرف على البقعة المُمتدة لمبيت العابرين، ويرمق بعينين متمرّستين صفوفَ الأجساد المرتصّة فوق سطح المسجد، مُنسلًا بنظراته بين فتحات المظلة التي تعلوهم. يبحث بين الأجساد

maktabah.blogspot.com

عن حركة متوثرة، غير اعتيادية؛ لو لمح إحداها هنا أو هناك، سيتناول حصوة من جوال الحصى المُعَد لهذا الغرض، ويُسدّدها بدقة صوب الجسد الآثم، سيتألم ذلك النجس في صمت، ثم يُعاود النوم. لا يسمح بمثل هذه المهاترات في دولته الصغيرة؛ تلك التي جاءها طريدا منذ زمن ليس ببعيد، فإذا بها تجعل منه حاكمها الأوحد.

الآن توهجت سماسم الفحم. فضّ لفافة السيلوفان التي تغلّف الطومباك المخصوص- طومباك البت بظّة ذات الجسد المدملج- وبدأ يرصّ أول حجر، ثبّت الحجر في قصبة الجوزة، وجلس يشدُّ الأنفاس وقد اطمأنّ لاستتباب حكمه وطاعة زعيته.

سبعة أعوام تفصله عن أول ليلةٍ يبيتها تحت سقف هذا المسجد، الذي لم يغادره قط منذ تلك الليلة البعيدة. كان آنذاك مُجنّدا في الجيش، لم يبلغ العشرين بعد، على الرغم من هيئته المقدودة من حجر، والتي توحي بسن أكبر بخمس سنوات على الأقل. كان لا يزال عبدا مملوكا، لم يذُق يوما طعم السيادة، لا يملك شيئا من نفسه إلا الغضب المكتوم، تُمسك بخناقه قبضةُ صول لا يعرف الشفقة، وكان قد تذلّل طويلا لجناب الصول، حتى سمح له بإجازة قصيرة، يوم بليلة، يسافر خلالها لتوقيع عقد بيع البيت في كفر الشوايشية، فلا يمكن لأحد غيره أن ينوب عن إخوته الصغار في بيع البيت، بعد وفاة أبيه، سيقوم بعد ذلك بإيداع المال في بيت خاله في سندنهور، ثم يعود من فوره إلى المعسكر قبل طابور الصباح. حمل مخلته وغادر فور سماع كلمة «غور» من فم الصول مرتضى، وانحشر بجمله بين عربتي قطار مكدّستين بالركاب، حتى بلغ محطة الزقازيق، ومنها ركب البيجو السبعة ركاب، حتى موقف سيارات الأجرة على مشارف الكفر.

انتظر طويلا في بيت أبيه حتى وصل الشاري، كاد يفقد الأمل في حضوره بعد أربع ساعات كاملة قضاها بصحبة أكبر أعمامه، يرتجل الكلام ويُعيد السلامات كي لا يملّ عمه الانتظار، ويتركه وحيدا في مواجهة هذا الموقف العصيب، لكنّ الرجل حضر نهاية المطاف بضحبة الوسيط، فجلس إلى الطبلية بجوار العم معتذرا عن التأخير. أبدى العم بعض استيائه من ضياع بزكة ساعات النهار، فاعتذر الرجل بظروف الطريق وجمع النقود من عدة أطراف، وأصرّ أن يدعوهما لتناول الغداء في البلدة المجاورة قبل أن يضع توقيعه في ذيل العقد؛ قال له العم: «ما يصحّ، أنت ضيفنا ولا يمكن إلا أن نُضيفك هنا، بداخل البيت»، فحلف الشاري يمين الطلاق ثلاث مرات إن لم يستجيبا لدعوته، «يكفي أني عطّلتكما طوال النهار»، فاضطرا

maktaban.blogspot.com

تحت ضغط إصراره للموافقة.

استغرق الغداء زهاء ساعة، والشاي مع النعناع وأحجار القصّ ساعة أخرى، بخلاف اللتُ والعجن في الفارغ والمليان. فإذا بشمس المغيب تسقط خلف الأفق الداكن. ومع أول لدعة من بعوض المساء، أحس برعدة الخوف من تأخر الوقت. اضطر لمقاطعة حديث الشاري، الذي لم يلتقط نفسه منذ وصلوا المقهى، قائلًا: «بعد إذنك يا خال، أنا في عجلة من أمري». فقال الرجل: «هما ورقتان سنوقعهما بحضور الشهود، وتذهب مصحوبًا بألف سلامة» وبالفعل، قاما بتوقيع العقد بصحبة الشاهدين، العم والوسيط، دون تعقيدات أو مزيد فصال. فاستلم حقيبة النقود وأمسك مقبضها بيده الشاغرة، فيما الأخرى مشغولة بمصافحة المهنئين.

تردّد بين الذهاب بحقيبة المال لبيت خاله في سندنهور، وبين التوجُّه نحو المعسكر مباشرةً، خشية التأخُّر على الصول مرتضى، وبهذه الحيرة تحدّث مع المحيطين به، فتضاربت الآراء فيما بينهم، وإن مال أكثرهم نحو الصبر والتروي قبل اتخاذ القرار. تكفّل أحد المرافقين للشاري بتفزيعه من أي تأخُّر إضافي، خاصة وفي حوزته مبلغ كهذا، «الأفضل أن ترحل في التو واللحظة، قبل دخول الليل عليك»، وعرض عليه أن يُقلّه بسيارة الحاج- شاري البيت- حتى موقف الكفر كسبًا للوقت، ومنه يركب البيجو وينطلق بسلامة الله. وهكذا سلّم على الجميع ومضى بصحبة الرجل الكريم.

ثم حدث ما لم يكُن أبدًا في حسبانه، فقد فرغ الوقود من سيارة الحاج في منتصف الطريق الأسفلتي المتشقّق، الموصل إلى أطراف الكفر، ما اضطرّه لشُكر الرجل أن قطع به هذه المسافة، والانطلاق سيرًا على قدميه حاملًا مِخلّته وراء ظهره، ومُحتضِنًا حقيبة النقود لصق صدره. سار بهمّة بمحاذاة الطريق آملًا أن يبلغ العمار، وعند أول انحناءة يمرّ بها برز خفيرٌ من أحد الغيطان، وعرض عليه شُرب الشاي المنصوب على النار، ناصحًا إياه ألا يستكمل السير في هذه الناحية، فقُطّاع الطُرق لا يتركون عابرًا على قدميه في حال سبيله.

«عليّ أن أعود للمعسكر يا خال»، أخبر الخفير، فقال الرجل: «يا بُني لا تجازِف، هناك ألف حجّة وحجّة تبرّر بها تأخُّرك، فلا داعي للمخاطرة».

قال الخفير إن بإمكانه مجالسته حتى يطلع النهار، أو لو شاء المبيت في المسجد القريب، فسوف يجده على بُعد خطوات، هناك يستطيع أن يفرد جثّته، وأشار نحو منذنة مرتفعة تنغرز بمفردها في لحم السماء. اطمأن قلبه لمرأى المئذنة، وارتاح إلى

maktabah.blogspot.com

النوم في ستر الله الحفيظ، ما جعله يختار البقعة الملاصقة لمنبر المسجد بالذات، حتى ينام في كنف المنبر المرتفع، فيشعر بالونس. وضع المخلة تحت رأسه، وحقيبة النقود خلف ظهره محصورة بينه وبين جدار المنبر، ثم أسبل عينيه استعدادا للنوم، فيما يفكر في الأسباب التي سيسوقها للصول مرتضى تبريزا لتأخره، آملا أن يجدها قد انطبعت في ذاكرته حين يصحو قبل الفجر. كان التعب قد نال منه كل منال، وسرعان ما ارتفعت أنفاسه واسترعت سمع خادم المسجد، ذلك العجوز ذو اللحية البيضاء الهانئة، الذي سحب من قلب المحراب سجادة صلاة مهترئة الحواف، وغطى بها عابر السبيل الذي راح سريعا في النوم. ومن أعمق لحظة سكون في جوف الليل، تسلل السارق، ومن ستر المنبر العالي ودفء سجادة الصلاة استل الحقيبتين؛ المخلة وحقيبة النقود. كانت الخطة مرسومة بدقة، بدءا من تأخر الشاري عن الموعد المضروب، مرورا بالغداء والشاي وأحجار القص، واللت والعجن والعقود والشهود، ثم السيارة وتعطلها فوق الأسفلت المتشقق، والخفير ونصائحه، والمسجد ومئذنته، وصولا للسارق المتسلل في هدأة الليل يستهدف الحقيبتين. نشز عن الخطة المرسومة أمر وحيد، هو وجود خادم المسجد العجوز في الميضأة فطفأة الأنوار، لحظة وصول السارق، كما مفاجأته عند باب المسجد لحظة خروجه حاملا الحقيبتين. كبر العجوز بفزع الأمن طوال حياته، فاستل اللص مطواته المعقوفة، ودس بغتته في قلب العجوز، وانبجست الدماء غزيرة مع خروج النصل الحاد. انكفأ الخادم فوق الحاجز الخشبي الذي يفصل باحة المسجد عن المصلى، فاستيقظ النائم بجوار المنبر على الصراخ المحشرج المفجوع، وراح يصرخ هو الآخر مسترعيا أهل البيوت المجاورة.

مرت لحظات قبل أن ينتبه لسرقة الحقيبتين؛ قبل إدراكه فداحة الموقف، حقيقة ضياع كل أمواله، كل أوراقه، هويته، بيادته، مخلته، مستقبله.. حتى إن أحد المتجمعين حاول أن يكبده المزيد، فاتهمه بقتل الشيخ الورع، فيما دعا شخص آخر الجميع لأن يستهدوا بالله العلي القدير، وحاول آخران إسعاف العجوز بكتم الجرح الغائر بطاقيته الصوفية، لكن سرعان ما أسبلا جفنيه، وأخذا يلقنانه الشهادة التي كان أحوج إليها قبل قليل.

وحين هدأ الجمع، ذهب البعض يستدعي من يتقن الغسل، بينما التف الباقون حول الشاب المفجوع يدعونه للترئث وتدبر الأمر؛ استهد بالله وفكر بهدوء، لا أمل لك في العودة للمعسكر، هكذا قالوا له، سيفتك بك الصول الغشوم، سيحبسك، سيزج بك أمام محكمة عسكرية، قد يطلبون رقبتك مقابل المخلة، كما أنك بلا أوراق، ليس بحوزتك هويتك، لا مال ولا ظهر ولا سند. فأين تذهب يا ابن الحلال؟ ابق هنا، لن

maktabah.blogspot.com

يعرفوا لك طريق جزة، هذا المسجد غير تابع للأوقاف، يقتات على الصدقات القليلة وبطاطين الشتاء، كان الخادم العجوز عليه رحمة الله يُحصّل الصدقات والبطاطين، ويقوم بتوزيعها مقابل قروش زهيدة تُعينه على العيش. كُن خادمًا للمسجد عوضًا عن الشيخ، فلربما ابتلاك الله بهذه المحنة كي يكتب لك الخير. من يدري.

مع كل يوم يمرُّ عليه، كان يزداد توجُّسًا في هذه الكذبة، تنغرس قدماه في مصيبة التهرُّب من التجنيد، فلا يجد مفرًا من البقاء في المسجد الكبير، خاصة مع تمسُّك أهل البلدة به. وفي المقابل، كان ملاذهم من نضوب الصدقات، لفّقوا لأجله ملابس أزهرية تكاد تكون مُقنِعة؛ قلنسوة حمراء كالحة، عمامة مهتوكة النسيج، جلبابًا لا يستر ساقيه بالكامل، وراحوا يتناوبون فيما بينهم إعداد طعامه وغسيل ملابسه، حتى يقضي الله في أمره. وكان كلما انفرد بنفسه في محبسه الفسيح ذي السقف المرتفع، يقرأ فصولًا من «رياض الصالحين»، من «المورد العذب»، ويردّد خطبًا من «خُطب الجمعة والعيدين»، يحفظ منها ما تيسّر حفظُه، ويضع قصاصات الأوراق ليُعلّم خُطب المناسبات التي ستجِلّ قريبًا، ويُدرّب نفسه على ارتقاء درجات المنبر وإلقاء السلام من أعلاه، حتى أمسى إمامًا للمسجد لا خادمًا فحسب، ولكثرة ما استمع بإنصاتٍ شديد لإذاعة القرآن الكريم، اكتسب نبرَ الأزهريين ونُطقهم المميّز، فصار مُستحِقًّا لزيّهم ممتلئًا بثقتهم، وبفضل وجوده وسمته المقنع زادت الصدقات، وتراضت البطاطين من فيض الأثرياء في النجوع المحيطة، فصار الناس يؤمّون المسجد نهارًا لطلب الإحسان والثواب، وليلًا للمبيت .. كان أكبر مساجد الناحية؛ بناه قديمًا أحد الأعيان من أحزاب المعارضة، وصمّم ألا يتبع مسجده الأوقاف، ثم مات الرجل وبيعت أرضه لصغار الفلاحين، ولم يبقَ من أثره إلا المسجد المطل على الطريق المسفلت، ساترًا وراءه بيوت البلدة. وعلى عكس المعمول به في مساجد الأوقاف، كان المسجد لا يُغلق أبوابه في وجوه العابرين، ولا يضيق بالعمال الوافدين لمواقع إنشاء الكباري الجديدة على الطريق الزراعي. ومع اشتداد البرودة في أول موسم شتوي، هبطت على المسجد بطاطينُ الشتاء كالمنّ والسلوى، فصار الشيخ الأزهري الشاب يستقبل المتبرعين، يُقدّم نفسه باسم الخادم الراحل، وبصفته المسؤول ليس عن هذه البلدة فحسب، بل عن جميع نجوع الناحية، ويطلب من أهل الخير ضعف ما يحتاجه الناس من بطاطين، ثم يمنح القطعة مُقابل عشرة جنيهات توضع في صندوق عمارة المسجد، مع الكثير من صادق الدعاء.

تكوّمت البطاطين خلف المنبر، ثم بداخل غرفة الإمام حتى كادت تُلامس سقفها الواطئ، ومع تزايُد الأعداد لجأ لتخزينها فوق سطح المسجد، وفكّر في صنع مظلّة من المشمّع الثقيل تقي البطاطين من الأمطار المحتملة في هذه الفترة من العام،

maktabah.blogspot.com

وبعد انتهائه من تثبيت المظلة، وقف يتأمل صنعة يديه ويتفكر في فرص تطويرها، فإذا بالفكرة تولد أمامه من وحي اللحظة.. ها هي دولته الصغيرة تنشأ تحت سماء المظلة الخفيضة، وتنبسط أمام عينيه كلما مدد بصره في أي اتجاه. كان يتأمل المساحة الفسيحة بين قبة المسجد، المرفوعة فوق قاعدة عالية تحفها الشبابيك من كل اتجاه، وبين العرائس المصنوعة من الجبس التي تحاوط السطح، ورأى إمكانية تجهيز مكان جهة الغرب لمبيت العابرين والعمال الوافدين، بدلا من تركهم يبيتون بداخل المسجد.

شرع من فوره يمد الحبال ويثبتها على ارتفاع قامة متوسطة، بين العرائس الجبسية وقاعدة القبة، ثم شد عليها حواف البطاطين وخاطها بالدبارة السميكة، فصارت مظلة تستر النائمين أسفل منها؛ تمنع عنهم هبات الليل الباردة وسياط الضوء مع طلعة النهار. ومنذ أنجز المظلة صار لا يسمح بمبيت أحد داخل المسجد؛ من يرغب في المبيت فمكانه فوق السطح تحت مظلة البطاطين، وله أن يحصل على فرشة ينام عليها نظير صدقة يضعها في صندوق عمارة المسجد، لا تقل عن عشرين جنيها، صارت ثلاثين بعد أشهر قليلة مع تزايد الطلب، وراحت تربو فوق ذلك مع مرور الوقت... ومع مرور الوقت أيضا تراكم المال في صندوق عمارة المسجد، ما جعله يقلب فكرة الزواج من بطة- بائعة الدخان- على جانبيها، لكنه مال نحو الحفاظ على هيبته حديثة العهد، فاكتفى بمرورها السري عليه لتزويده بالطومباك، وارتضى من متع الدنيا بمشاهدة ارتصاص النائمين فوق سطح المسجد أسفل المظلة، حتى صار أحب المشاهد لقلبه؛ يشرف عليهم من مجلسه أعلى المئذنة، يشد أنفاس الطومباك اللاذعة، ويحصي الأبدان كراعٍ يحصي نعاجه، يؤدبهم لو لزم الأمر، بحصوة هنا وزجمة هناك، تأتيهم من أعلى كعقاب رباني مستعجل.

هنا، هو السلطة الوحيدة المطلقة، يصير أعلى هذه المئذنة ملكا يمسك بزمام مملكته، يسيرها كيفما يشاء. لا حاجة به إلى الذهاب بعيدا عن حدود دولته. هنا يعد درجات المئذنة صعودا كل يوم، يحصي الأنفس والأنفاس، يتأمل صيرورة حياته ويزداد اعتزازا بما آل إليه، وإن كان ثمة شعور غامض بالقلق ينغص عليه، كأنه غصة تسكن الحلق، يود لو ينساه ولو لبرهة، فيصفر لحن أغنية قديمة ما عاد يذكر مطلعها، كانت تؤنس لياليه أيام الخدمة، ويدفع سؤال الماذا بعد لأبعد نقطة ممكنة.

تمت

maktabbah.blogspot.com

maktabbah.blogspot.com

أكبر مكتبة للكتب و الروايات الحصرية
والمميزة والنادرة بصيغة PDF

تابعونا على الموقع الرسمي

www.maktabbah.blogspot.com

أو على قناة التيليجرام

t.me/alanbyawardmsr